الشاعر سلطان العويس

خالدون في ذاكرة التاريخ الأدبي

2000 - 1925

الشاعر سلطان العويس

خالدون في ذاكرة التاريخ الأدبي

1925 - 2000

عبداللطيف الأرناؤوط

Qindeel | قنديل

Poet Sultan Al Owais

Immortal Scholars in the History of Literature

1925 - 2000

Abdu latif Arnaout

الشاعر سلطان العويس

خالدون في ذاكرة التاريخ الأدبي

2000 - 1925

عبداللطيف الأرناؤوط

© 2017 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، و بأي طريقة، سواء
أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلاف ذلك،
إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

موافقة « **المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: 191469 تاريخ 2017/3/26

ISBN: 978 - 9948 - 23 - 487 - 6

Qindeel | قنديل

للطباعة والنشر والتوزيع

Printing, publishing & Distribution

ص. ب: 47417 شارع الشيخ زايد

دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© **جميع الحقوق محفوظة للناشر** 2017

الطبعة الأولى: آذار / مارس 2017 م – 1438 هـ

المحتويات

الإهداء 7
المقدمة 9
تأملات سلطان العويس في الأدب والحياة 11
تاجر استهواه الشعر 19
الرؤية الشعرية عند سلطان العويس 35
الشاعر الإنسان 43
النزعة الإنسانية في شعر سلطان العويس 49
الوطنية في شعر سلطان العويس 55
الغزل في شعر سلطان العويس 63
المرأة في شعر سلطان العويس 71
سلطان العويس في ذاكرة معاصريه 77

إهـــداء

إلى الأدباء المعاصرين الذين يتطلعون للوصول إلى قمة المجد والخلود

وكل من لا يزال يشقّ طريقه في واحة الفكر والأدب.

المقدمـــة

ولد سلطان العويس سنة 1925 م وكان والده يعمل في تجارة اللؤلؤ الطبيعي، لكن هذه التجارة خسرت بسبب اللؤلؤ الصناعي، ولهذا تحول الأب الطموح إلى صيد السمك واتسع نطاق عمله وامتد إلى عدة دول مجاورة. وفي هذا الوسط الذي يقوم على الطموح والمغامرة نشأ (سلطان العويس) وورث عن والده حب العمل والأمانة وثقة الناس به. وقد أرسله والده إلى الهند لمتابعة تجارته، ولكن لم تشغله التجارة عن ميله إلى الثقافة والأدب، وكانت (حيدر آباد) إحدى مدن الهند التي تضم جالية عربية كبيرة وتُعنى بطباعة كتب التراث العربي الإسلامي هي بداية شغف وإقبال (سلطان العويس) مع بعض أقرانه على قراءة هذه الكتب؛ فتعززت ثقافته وبرزت مواهبه الأدبية؛ حيث يعترف (سلطان العويس) بأن الهند كانت مصدراً لثقافته واتساع معرفته.

وقد كان (سلطان العويس) يتمتع بشخصية الرجل الطموح الذي لا يعرف اليأس، وقد ورث لقب (العويس) من العمل في البحر؛ فالاسم يدل على زورق صغير مصنوع من الخشب أطلق فيما بعد على أسرة العويس التي عملت في البحر. فشخصيته الطموح والمنفتحة والعصرية كان لها أكبر الأثر بنجاحه في كل خطوة يخطوها، وسمات طبعه هذه منحته القدرة على التكيف مع الواقع

والنفاذ إلى تبني مشروعات حياتية لها طابع اجتماعي لا فردي تنبعث من رغبة شديدة في تغيير عالمه.

وكان اهتمامه الثقافي والأدبي حافزاً له لإقامة مؤسسته الخيرية التي أوقف لها مجموعة من الاستثمارات توزع عوائدها على المشروعات الثقافية؛ من بينها جوائز مالية تمنح لأعلام الفكر والأدب في العالم العربي والإسلامي بهدف تشجيع الإبداع، وأوكل للأمناء اختيار لجنة التحكيم وترشيح الفائزين دون أن يتدخل في شؤونهم. ونلاحظ أن أكثر ميزة في شخصية (سلطان العويس) قدرته على استشراف آفاق التغيير والتطلع إلى المستقبل بروح عصرية تجاوز فيها زمانه، حيث كان يرفض فكرة استثمار رأس المال الوطني في الخارج لما يترتب على ذلك حرمان الوطن من موارده المالية.

أما عن تأملاته الاجتماعية والأدبية فيبدو (سلطان العويس) شخصية واقعية يتعامل مع الواقع منطلقاً من تحليل الطبيعة البشرية ونوازعها، وقد أمدته خبرته الحياتية وتجاربه بإدراك هذه الطبيعة بعمق؛ فهو يؤمن بأن التغير يبدل المشاعر عبر الزمن، فالحب يفتر بعد التواصل، ولا شيء في الحياة يستمر ويدوم مع الزمن الذي يبدل الطباع والنفوس والأحوال، ومن هذا المنطلق يرى (العويس) أن ظاهرة الحب العذري لا تصلح أن تكون بتجلياتها وعذابها أفقاً مسيطراً على شعر الغزل، وغالباً ما يتحول الحب مع الزمن إلى محبة الأولاد ولا يبقى غير الرماد والبكاء على أطلاله، ويؤمن (العويس) بأن ما ينشده كل جنس من الآخر هو التمتع بالجمال الذي تجسده العين من نظرة إلى الشخص الآخر.

وأخيراً، نستطيع أن نقول أنه على الرغم من رحيل هذا العملاق عن عالمنا لكن أعماله ومبادراته ظلت ومازالت تذكرنا بعظمة هذا الإنسان الذي جمع بين الأدب والتجارة، واستطاع أن يخلق توازناً في حياته بين هذين المجالين.

رحم الله عملاقاً كنا ومازلنا نذكره.

تأملات سلطان العويس
في الأدب والحياة

رحل سلطان العويس عن عالمنا بجسده، لكن أعماله ومبادراته الخيِّرة ظلت من بعده تذكرنا بعظمة هذا الرجل العملاق الذي علمته الحياة ما لم تعلمه الكتب، فكان ابن هذا المجتمع العربي الأصيل في إيثاره ورحابة أفقه، وحامل قيم الدين الإسلامي سماحة يطبقها بالفعل لا بالقول، فيقاسم الناس ما حباه الله تعالى من نعمة، ويقيم المؤسسات الخيرية والتربوية، ويشجع الثقافة والأدب، ويحقق نهضة مجتمعه في زمن هو أحوج ما يكون للتنمية.

ولد سلطان سنة 1925م، وكان والده علي يعمل في تجارة اللؤلؤ الطبيعي، لكن هذه التجارة خسرت بعد اختراع اللؤلؤ الصناعي، فلم ييأس ذلك الأب الطموح والمغامر، بل تحول إلى صيد السمك وتجفيفه ثم تصديره إلى كوالالمبور والهند وأوروبا، فلما اتسع نطاق العمل التجاري والتعامل في دولة الخليج وقيام مؤسسة مصرفية تسير أمور التجار، تطلع علي إلى إنشاء المصرف البريطاني بمساعدة حاكم دبي الشيخ راشد، وقبل افتتاحه توفي الوالد علي فاحتل مكانه في إدارة البنك

ابنه سلطان، وحقق المصرف نجاحاً كبيراً بفضل ما عرف عن علي من صدق التعامل وثقة الناس به ومن أمانته؛ فقد كانوا يودعونه أموالهم قبل إنشاء البنك، فيحفظها وديعة في صندوقه إلى أن يطلبها المودع دون أن يتصرف بها.

في هذا الوسط الذي يقوم على الطموح والمغامرة، نشأ سلطان وأخذ عن والده حب العمل والأمانة وثقة الناس به، فأرسله الوالد وهو في الخامسة والعشرين من العمر إلى الهند لمتابعة تجارته، واستقر فيها حتى سنة 1958م. ولم تشغله التجارة عن ميله إلى الثقافة والأدب، وكانت حيدر آباد إحدى مدن الهند تضم جالية عربية وتعنى بطباعة كتب التراث العربي الإسلامي، فأقبل سلطان وبعض أقرانه على قراءة هذه الكتب ومناقشاتها في الأمسيات الأدبية التي كانوا يعقدونها بعيداً من عالم الربح والخسارة والمغامرات التجارية. فتعززت ثقافته وبرزت مواهبه الأدبية، وهو يعترف بأن الهند كانت مصدراً لثقافته واتساع معرفته.

في حياته الحافلة بالمخاطرة شهد سلطان ألواناً من شظف العيش والإفلاس، وكان يتمتع بشخصية الرجل الطموح الذي لا يعرف اليأس شأن أبناء الخليج الذين كان الغوص والمغامرة حرفة لهم، ومصدر عيش يكسبون منه قوتهم على شفا الموت، وكثيراً ما تقلب الحيتان سفنهم أو يبتلعهم البحر الغاضب. وقد ورث سلطان لقب العويس من العمل في البحر؛ فالاسم يدل على زورق صغير مصنوع من الخشب أطلق فيما بعد على أسرة العويس التي تعمل في البحر.

لم تكن التجارة أقل مغامرة؛ فكانت ثرواتهم ترتفع أحياناً إلى عشرة ملايين دولار، وقد تتبخر كلها بغرق سفينة محملة بالذهب من المستورد من أوروبا ليباع في الهند، ويعلق سلطان على هذه التجارة المغامرة آنذاك فيقول: لا أحب اليوم المغامرات ولا أعملها، زمن المغامرات

انتهى، كل شيء الآن مخطط له ومدروس، المغامرة كانت نتيجة الحاجة، ولم نكن نملك خياراً آخر.

شخصية سلطان الطموح والمنفتحة والعصرية كان لها أكبر الأثر بنجاحه في كل خطوة؛ فهو يتمتع بفاعلية شديدة وترجيع بعيد للأحداث في نفسه. يحتفظ بتجاربه السابقة ويعيدها ويفيد منها، ويملك انفعالاً عاطفياً متوازناً؛ فلا تخرجه الصدمات عن ضبط انفعالاته واستخدام عقله، وسمات الطبع هذه منحته القدرة على التكيف مع الواقع، والنفاذ إلى تبني مشروعات حياتية لها طابع اجتماعي لا فردي تنبعث من رغبة شديدة في تغيير عالمه. فمن أصحاب الثروات من حصر همه بأسرته وتكديس المال وتوريثه، أما سلطان فكان يشعر بقيمة حياته والدور الموكل إليه عبرها، وتجاوز طموحه أحلامه الفردية فأسهم في إنهاض مجتمعه. وهو من مواليد ناحية الحيرة من أعمال الشارقة، لكن أفقه وأحلامه تجاوزت مسقط رأسه، وكان التعليم في دول الخليج متأخراً بسبب المستعمر الإنكليزي الذي سد بابه، حتى منع الاستعانة بالمعلمين من الأقطار العربية، فجهد سلطان ورفاقه في التعاقد مع ستة مدرسين لمنشأة تعليمية أقاموها في الشارقة عرفت باسم المدرسة القاسمية، وأغرى السكان بإرسال أولادهم إلى المدارس ،وقدم للتلاميذ وجبات غداء ومرتباً شهرياً، فارتفع عدد تلاميذ المدرسة من ثلاثين تلميذاً إلى ثلاثمئة تلميذ. وفي دبي أنشأ المدرسة الخالدية، وبنى للأساتذة بيوتاً للسكن فيها.

وامتد عمله الخيري إلى مصر والمغرب؛ فأنشأ المدرسة التقنية في مصر، ومدرستين في المغرب بهدف توفير اليد العاملة التقنية في الوطن العربي.

كان اهتمامه الثقافي والأدبي حافزاً له لإقامة مؤسسته الثقافية الخيرية التي أوقف لها مجموعة من الاستثمارات توزع عوائدها على المشروعات

الثقافية، ومن بينها جوائز مالية تمنح لأعلام الفكر والأدب في العالم العربي الإسلامي بهدف تشجيع الإبداع، ولكي يثبت نزاهته وحياده الثقافي أوكل للأمناء اختيار لجنة التحكيم وترشيح الفائزين دون أن يتدخل في شؤونهم أو يوجههم لتشجيع لون معين من الثقافة ليس له طابع سياسي يفسد توجه المؤسسة وحيادها، وكأنه أدرك بثاقب نظره أن السياسة ما دخلت باباً إلا أفسدته، وأن مؤسسات عالمية كبرى لم تسلم من التورط في ألاعيبها، وسخرت نفسها خادمة للدعايات السياسية المنحازة.

لقد عرفت قديماً المجتمعات ألواناً من تشجيع الفكر؛ فكان بعض أمراء الغرب يرعون الأدباء لكن في لون من الامتهان؛ إذ يلتحق الأديب بقصر الأمير فيصبح تابعاً، بما في ذلك من الانتقاص من قدره واستقلاليته، كما عرف الأدب العربي رعاية من الخلفاء للأدباء لم تسلم من غرض سياسي مكشوف يحد من حرية الأديب ويجعله بوقاً للمديح.

ونلاحظ أن أبرز مميزة في شخصية سلطان العويس قدرته على استشراف آفاق التغيير والتطلع إلى المستقبل بروح عصرية تجاوز فيها زمانه؛ ففي الزمن الذي نتجادل فيه حول الديمقراطية والحرية ومدى نجاعتها لتنمية المجتمعات في الدول النامية، أدرك العويس بعقليته المنفتحة وتجاربه الحياتية أهمية الحرية الاقتصادية في تطوير المجتمعات وتنميتها، ويرى أن الحكم الديمقراطي هو الحل الأمثل لتحرير المجتمع العربي الإسلامي من التخلف والجمود، فهو يدعو إلى حكم ديمقراطي حقيقي، ويندد بكل أشكال الحكم الاستبدادي. ولو كان المستبد حاكماً عادلاً، ويرى أن الأنظمة البرلمانية في المجتمع العربي أنظمة زائفة، لأنها لم تأخذ من الديمقراطية غير شكلها لا مضمونها، وأن الإسلام في دعوته للشورى والحوار وجه المسلمين إلى تبني الديمقراطية المعاصرة، فلا تعارض بين مبادئه السلفية والدعوات الديمقراطية المعاصر، وإن كان بعض

التباين بين السلفية وتنويرية اليوم، فإنه تعارض يشكل ظاهرة سليمة؛ لأن «التنويرية» في الأفكار وفي المواقف هي أساس تطور المجتمعات، ولا بد أن نحافظ على التنوع الفكري وندعمه؛ لأنه يساهم في قيام ثقافة فنية تملك أكثر من بعد[1].

والاستبداد في رأي سلطان بأشكاله المختلفة يقوم على القمع ولا يسمح بالحوار والإفادة من وجهات النظر المتنوعة، فإذا غاب الحوار كان لا بد من الصراع والمواجهة، وأن أكثر المؤسسات الديمقراطية - كما يقول - مفقود في الوطن العربي؛ فالفرد هو الذي يقرر، وعمل المؤسسات الديمقراطي غائب في المجتمع العربي[2].

وفي الأمور الاقتصادية، يعرض العويس نماذج مقارنة من أوضاع الدول العربية، فيقارن بين مستوى تطور الفرد والمجتمع في بلد يملك النفط ويتبنى الديمقراطية، وبلد آخر يملكه ولا يتبنى الديمقراطية؛ ففي هذه المجتمعات التي يحكم فيها الفرد تتولى المخابرات قمع كل فكر تنويري، وملاحقة الفعاليات الاقتصادية واضطهادها، وفي ذلك ضرر مزدوج؛ فعناصر الأمن المنتزعة من بيئتها الزراعية أو العمالية طاقة معطِّلة ومعطَّلة - بكسر الطاء وفتحها - للإنتاج والتنمية، ولو أطلقوا الحرية الاقتصادية لتولى المجتمع تطوير نفسه بنفسه، وإقامة مؤسساته المدنية للنهوض بالمجتمع؛ ذلك أن رجل الأعمال إن منح حرية اقتصادية وأعطي حرية السعي والتصرف حفزه ذلك إلى تنمية مؤسسته وتحسين شروط حياة العاملين فيها؛ لأن نجاحها يقوم عليهم، أما إذا كانت الدولة تحمي العمال وتضطهد رب العمل وتضيق عليه فإن رأس المال يهاجر مرغماً وتنعدم الثقة بين النظام ورب العمل وأصحاب الفعاليات الاقتصادية.

---

(1) مجلة «العربي» الكويتية. العدد (421). ديسمبر 1993 م. (وجهاً لوجه). حوار أجراه الأستاذ «شوقي رافع» صفحة (64 - 74).

(2) المرجع السابق

ويرفض سلطان العويس فكرة استثمار رأس المال الوطني في الخارج؛ لما يترتب على ذلك من حرمان الوطن من موارده المالية، ويؤكد أن نجاح الاستثمار في الوطن مضمون إذا توافرت الشروط الاقتصادية السليمة لهذا النجاح.

وعن نظرية المستبد العادل التي يتبناها بعض المفكرين نظاماً مثالياً للشعوب النامية التي لم تترسخ فيها الأعراف الديمقراطية، يرفض سلطان هذه المقولة، ويرى أن حاضرنا هو عصر المؤسسات لا الأفراد، ذلك أن القرار الفردي يتغير بقرار عند زوال السابق وتولي اللاحق المسؤولية، فيعيش المجتمع في دوامة مفرغة ولا يعرف الاستقرار أو التطور، ويضع رأس المال تحت رحمة النزعات الفردية غير المدروسة.

وفي تأملاته الاجتماعية والأدبية يبدو سلطان العويس شخصية واقعية يتعامل مع الواقع منطلقاً من تحليل الطبيعة البشرية ونوازعها، وقد أمدته خبرته الحياتية وتجاربه بإدراك هذه الطبيعة بعمق؛ فهو يؤمن بأن الثقة بالإنسان تشجعه على أن يكون جديراً بهذه الثقة ما لم يثبت العكس، والعكس نادر جداً؛ لأن الإنسان مفطور على الخير. يقول:

(بالخبرة تصبح أكثر معرفة بالناس، وتعرف مَنْ تختار بينهم، وأين تضعه. لدي إدارات فيها ناس محترمون طيبون، وباب مكتبي مفتوح لكل الناس، ليس عندي بيروقراطية أو سكرتارية، أسمع من الناس وأستمع إلى آرائهم ومقترحاتهم وشكاواهم، والعاملون معي يعرفون أن علاقاتي مع الناس مبنية على الثقة، وهم يحرصون على دعم هذه الثقة، ومن هنا يصبح العمل متعة كالشعر والثقافة، لأنه يحقق التواصل مع الآخرين) [(1)].

وواقعيته في النظر إلى الحب والمرأة يكتنفها الصدق والبعد عن المشاعر

(1) المرجع السابق.. ص (73).

المفرطة. فهو يؤمن بأن التغير يبدل المشاعر عبر الزمن، فالحب يفتر بعد التواصل، ويفسده اللقاء بين المحبوبين فتخمد ناره، ولا شيء في الحياة يستمر ويدوم مع الزمن الذي يبدل الطباع والنفوس والأحوال، ومن هذا المنطلق فإن ظاهرة الحب العذري لا تصلح أن تكون بتجلياتها وعذابها أفقاً مسيطراً على شعر الغزل؛ لأن ذلك الحب كان ينهل من الحرمان، وظاهرة مجنون ليلى لا تصلح أن تكون نموذجاً لغزل عصرنا إلا إذا لم ينل المحب حظه من المحبوبة، وإن نال حظه من الاجتماع بها فسيتحول الحب مع الزمن إلى محبة الأولاد، ولا يبقى غير الرماد والبكاء على أطلاله.

ويؤمن العويس بأن ما ينشده كل جنس من الآخر هو التمتع بالجمال الذي تجسده العين من نظرة أو لمسة، لكن الشاعر يحاول التقاط هذا الشعور بالكلمة، ولا يهم عاطفة الحب أن تكون محصورة بامرأة أو عدد من النساء؛ فالمرأة تثير وتحرض على كتابة الشعر حتى لو كان ظهورها عارضاً في لقاء عابر.

والشاعر الحق هو الذي ينجح في تجسيد شعوره بالكلمة الجميلة المعبرة، ومهمته (كما يقول العويس (أن يعطي هذا الجمال حقه في جمال العبارة، حيث لا يقل تأثير الصورة الشعرية عن تأثير الواقع، بل قد يتجاوزه جمالاً، فيغدو أروع من النموذج الملهم نفسه، وكهرباء المرأة هو المحرض للشاعر، سواء أكان تدفقه من نبع واحد أم من منابع وأسلاك عدة [1]. هذه النظرة لديه لم تكن ثمرة نزعة عقلانية جافة، بل كانت ثمرة أفق واسع في الرؤية.

فدينامية الانفتاح على الحياة سمة خص الله تعالى بها البشر، إذ جعلهم يتحركون ويسعون ويفكرون ويعززون تواصلهم بحدود الزمان

(1) المرجع السابق.. ص (73).

والمكان، فإذا أدركنا الحياة كما أدركها سلطان العويس هتكنا القيود التي تكبلنا والحجب التي تحد من نظرتنا لرحابتها، وكنا أقدر على مواجهتها وتحمل تبعاتها بالصبر والابتسامة، إنها انطلاقة الحرية نحو المستقبل الحافل بالمفاجآت، وتثبيت الذات في عالم دائم التبدل والتغير، وامتحان حقيقي لشجاعة المواجهة، وتعزيز لنزعة الحب لدينا بمعناه الإنساني الواسع الذي لا يقتصر على منح مشاعرنا لأسرنا الضيقة أو معارفنا المحدودين، بل للإنسانية جمعاء، ومساعدتها على أن تغدو أكثر قدرة على تحقيق الطموح والسعادة والخير للبشر.

تاجر استهواه الشعر

حين وقع بين يدي الكتاب الذي أصدره اتحاد كتاب وأدباء الإمارات العربية المتحدة بعنوان (سلطان العويس.. تاجر استهواه الشعر) أتيح لي أن أتعرف أول مرة شعر ذلك الشاعر الرائد، وآلمني ألا يكون بين أقطار العروبة والإسلام تواصل أدبي قادر على تزويد الناس بمعلومات وافية عما يجري على الساحة العربية الأدبية من نشاط، وما تحتله تلك الساحة من أسماء أدبية، وما زلت أذكر ما كتبه الأستاذ الفيلسوف زكي نجيب محمود عما لاحظه من قطيعة وعزلة بين الأقطار العربية، وفقر في مجال التواصل الأدبي والعلمي؛ إذ يقول: (نريد من يهيئ المناخ الملائم الذي يدعونا من تلقاء نفسه إلى ضرب من التجمع العقلي حتى وإن لم يجمعنا مكان واحد، نريد للفكرة أن تصدر في هذا الطرف فتجد الآذان تصغي إليها في ذلك الطرف، القطرات الفكرية موجودة، تظهر آناً بعد آن، ونريد من يجعل منها نهراً، اللمعات الفرادى متناثرة ونريد من يصنع منها سراجاً) [1].

(1) نافذة على العصر – كتاب العربي، أبريل 1990 – ص (221).

وإذا كان فيلسوفنا يتمني أن نأخذ من الكاتب مقالته، ومن الشاعر قصيدته لتنشر في يوم واحد في أقطار عربية عدة، وعندئذ يكون كاتباً عربياً، وأن تتولي نقابة أو اتحاد ما تلك المهمة، فإنني أعتقد أن أبرز تطبيق لما دعا إليه زكي نجيب محمود لتعزيز تواصل الفكر العربي قيام الاتحادات الأدبية اليوم في دنيا العرب، واضطلاعها بهذا العبء، ومنها اتحاد الكتاب والأدباء في الإمارات العربية المتحدة الذي كان له الفضل في تعريف القارئ العربي بالنتاج الأدبي في الإمارات، وإن كانت مهمة تلك الاتحادات تعاني من القيود والحواجز والعقبات ما يجعل رسالتها عسيرة تعترضها شتى الصعوبات.

لقد تجددت سعادتي وأنا أقرأ الدراسات المتعددة التي ضمها الكتاب عن الشاعر سلطان العويس؛ إذ أتيح لي أن أتعرف من خلاله طبيعة الحياة الأدبية التي كانت سائدة في الإمارات خلال السنوات الخمسين المنصرمة، وهي طبيعة تمت بصلة إلى الحياة الأدبية في ماضينا الغابر، يوم كان الأديب يأخذ على نفسه بالقراءة ومعاشرة دواوين الشعراء الكبار حتى تستقيم ملكته، ويصقل إبداعه، مثلما تبين لي من الدراسات أن الأدب كان في الإمارات متصل النسب ببيئات ثقافية معينة، وفي أسر محدودة كأسرة العويس التي نبغ منها أكثر من أديب، مما يذكِّر المرءَ بأسرة زهير بن أبي سلمى والبيئة الثقافية التي صقلت شاعريته.

ويبدو أن طبيعة الثقافة الأدبية في ذلك البلد العربي العريق كانت تقترب كثيراً من طبيعة الحياة الأدبية غابر أيامنا الثقافية، قبل أن تتسع آفاق النشر والتواصل الأدبي بين الأقطار العربية الإسلامية، وذلك قبل أن ترسم الثقافات الأدبية الوافدة مناحي جديدة للأدب كادت تحرفه من مساره.

وعلى الرغم مما قدمته تلك الدراسات التي ضمها الكتاب عن الشاعر

سلطان العويس من فوائد جليلة، فإنها انصبت في جملتها على دراسة سلطان العويس شاعراً، ولم تلتفت إلى سلطان الإنسان. وفي ظني أن شخصية الشاعر هي مفتاح أدبه، ومهما يكن للبيئة الثقافية والاجتماعية من أثر في النتاج الأدبي، فإن جملة الثوابت التي تكوِّن شخصيته تؤثر إلى حد كبير في اتجاهاته الأدبية واهتماماته الذاتية.

ومع أن الوثائق المدرجة في الكتاب عن سيرة حياته وأخباره محدودة جداً، لا تسعف الناقد، حتى ليقول أحد دارسيه في ذلك: (وأتمنى أن أجد وسط الكتابات النثرية من المقدمات والخواتيم التي ضمها الديوان دراسة أو مقالة وافية عن سيرة الشاعر ورحلة حياته الحافلة وأسفاره وآثاره وما قدم لبلده، إن مثل هذه الدراسة ليست مهمة وضرورية للتعريف بالشاعر، وإنما هي مهمة وضرورية أيضاً للفترة والأحداث والهموم التي عنصرها الشاعر، وكان لها بالضرورة أثر في حياته وفنه معاً، فإنه من الممكن استخلاص الكثير منها)[1].

وأضيف: إن كتابة سيرة الشاعر نفسه بتلك المحاولة استناداً إلى ذكرياته وخواطره، وبالرغم من ذلك النقص الفادح، فإن دراسات عدة تناولت طباع الأدباء في الغرب والشرق، واستطاعت أن تتوصل إلى شخصية الشاعر من خلال تحليل آثاره الأدبية، وإن ديوان العويس والمقابلات التي عقدت معه، يمكن أن يكونا مصدراً غنياً لتحديد ملامح شخصيته إنساناً وفناناً، وهذا ما لم تقم به الدراسات التي تضمنها الكتاب الصادر عنه.

ولعل في محاولتي ما يفتح الطريق لباحثين أكثر تضلعاً مني لتعميق هذا المنحى النفسي في الدراسات الأدبية العربية.

---

(1) شيء من الحب في ديوان الشاعر سلطان العويس... عبدالوهاب قتايه.

حياته وبيئته

سلطان بن علي العويس شاعر من الإمارات العربية المتحدة، ولد في بلدة الحيرة بإمارة الشارقة في عام 1925 من أسرة عرفت بحبها الأدب والثقافة، وبرز منها عدد من الشعراء والباحثين والأدباء. عمل بتجارة اللؤلؤ وتقلب في أعمال متعددة، ومارس كثيراً من الأسفار بين الهند والإمارات وكراتشي، حيث أكسبه السفر والأعمال المتنوعة خبرة حياتية واسعة.

يعد سلطان في طليعة الشعراء بالإمارات العربية المتحدة، وحلقة الوصل بين جيلين من الأدباء، ومن رواد شعر الغزل في الخليج العربي، ولعل أنبلها تخصيصه جائزة مالية مجزية تمنح للمبدعين العرب في مجالات فكرية وأدبية وإبداعية متعددة، يرعى توزيعها اتحاد كتاب وأدباء الإمارات العربية المتحدة.

درس سلطان العويس في الكتاتيب، ثم تعهد نفسه بثقافة عربية صافية استمدها من الكتب القديمة الأدبية والدينية، والقليل من المجلات المصرية والكتب الوافدة من الأقطار العربية، في زمن كانت فيه وسائل الاتصال الثقافي محدودة، وساعدته قراءة القرآن الكريم على صقل لغته العربية والتمكن من أسرارها، وكان يتابع محاولات التجديد الأدبية في الوطن العربي من خلال دواوين الشعراء المحدثين في عصره، إلا أنه لم ينهج في شعره نهج شاعر معين، فظلت له شخصيته الأدبية المستقلة التي ترتكز على خصائص القصيدة العربية التقليدية وأساليب التعبير الأدبي الموروث، مع خصوصية تعكسها شخصيته التي تعد مفتاح شعره، وهي شخصية قوامها البساطة والعفوية والإيمان بالصدق في رسالة الأدب؛ فلم يكتب إلا ما أملته نوازع نفسه، وكان له حضوره الأدبي من خلال مجالسه واتصالاته الأدبية، على أنه كان قليل الاحتفاء بجمع شعره ونشره، عازفاً

عـن الشـهرة الأدبيـة، وقـد كان لسـيرورة شـعره وانتشـاره علـى كل لسـان أثـر فـي اهتمـام النقـاد بجمعـه دون أن يجهـد نفسـه بحفظـه أو تدوينـه، وهـو القـادر علـى ذلـك مـن الناحيتيـن الماديـة و المعنويـة.

شخصيته

ثمـة أديـب أمامنـا؛ فمـن يكـون؟ ومـا واقعـه البعيـد؟ أهـو حقـاً كمـا يبـدو لنـا فـي حياتـه؟ كيـف يتصـرف فـي بيئـة اجتماعيـة معينـة؟ مـا مزاجـه؟ أهـو متـوازن، منظـم، سـلطوي، متسـامح؟ ومـا انعـكاس ذلـك كلـه فـي أدبـه؟

ولدراسـة طبعـه وسـيلتان؛ إحداهمـا: اسـتخدام ضـرب مـن علـم نفـس الأعماق، كالتحليـل النفسـي علـى سـبيل المثـال، وتلـك طريقـة مثاليـة، ولكـن تطبيقهـا يتطلب دراسـة مباشرة.

وثانيتهمـا: معرفـة الخطـوط الكبـرى للطبـع مـن خـلال سـلوك الأديـب بالاسـتناد إلـى دراسـة علـم الطبـاع الحديـث ومعطياتـه، وقـد وضعـت عـدة تصنيفـات للأمزجـة منـذ القـرن الخامـس قبـل الميـلاد، منهـا تصنيـف هيبوقراط، التصنيـف الفرنسـي والإيطالـي وغيرهـا.

وبالرجـوع إلـى المقابـلات الصحفيـة التـي أجريـت مـع الشـاعر العويـس وملامـح حياتـه المسـتخلصة مـن شـعره، يتبيـن أن الشـاعر سـلطان متجـه نحـو العالـم الخارجـي، منفتـح أنيـس، عفـوي وطبيعـي، سـعيد بحياتـه، واقعـي وفكـه، ودّي التعامـل، سـليم الطويـة، متفائـل فـي الحيـاة، لا ينجـز بسـرعة عمـلاً كبيـراً، فاعليتـه مشـخصة، سـريع الملـل والتقلـب، يميـل إلـى التواضـع، وهـي ـ فـي ظنـي ـ صفـات الأشـخاص الذيـن هـم مـن النمـوذج العصبـي؛ فهـو إنسـان انفعالـي، ميـال للفكاهـة، أقـرب إلـى الشـاعر بشـار بـن بـرد الـذي وردت أخبـاره

في كتب الأدب وعرف بنوادره، وكثيراً ما تدفع الانفعالية الشخص إلى مجابهة الواقع والدفاع عن نفسه بالفكاهة، حتى إذا أنس الناس منه روحه المرحة عمدوا إلى استثارته ليستمتعوا بردود فعله.

السمات الخاصة لشخصيته

1. الفكاهة:

قد تكون الفكاهة عند سلطان العويس رد فعل أو تصريفاً لانفعاليته التي تدفعه إلى تحريك الواقع الجامد، أو تحديه، فيميل إلى اختراق المألوف وخلق مقالب تمتصه، والفكاهة في جوهرها خروج عن المألوف، وقد رويت عن سلطان الشاعر مقالب كثيرة ونوادر مستحبة، تجلى من خلالها ذكاؤه وجوابه المفحم وميله إلى تلطيف قوة الحياة وقدرته التخيلية التي تمت إلى الشعر والفن بصلة.

أثر عنه مثلاً أنه حين تزوج رثى لحاله فكتب:

نجا، ينجو، نجاة، فهو ناجِ

ولكن لا نجاةَ من الزواجِ

لنلاحظ كيف ربط الرتابة في تصريف فعل (نجا) برتابة الزواج، وقيوده الصارمة ونزعته إلى الحرية.

وروى فؤاد الخشن أنه سافر بصحبته مرة إلى باكستان، وفي مطار كراتشي فتحت حقائبهما، وعند إقفالها كانت كوفية سلطان متدلية خارج الحقيبة، وحاول إدخالها الحقيبة.

وقال: خل، خل، هذا علم العروبة!

وحمـل حقيبتـه والكوفيـة ترفـرف معلنـة عـن هويـة الزائـر الكريـم[1]. والواقعـة تـدل علـى موقـع انفعالـي، ونفـاد صبـر سـريع.

وكان يطيب لأقرانـه مـن الأدبـاء والأصدقـاء أن يطلقـوا عليـه لقـب (أبـو المقالـب) ويحاولـون أن يـردوا لـه مقالبـه، لكنـه كان يتملـص منهـا بـذكاء، فينقلـب السـحر علـى السـاحر.

2. **الميل إلى الأسفار والرغبة في تغيير الأجواء:**

وهمـا مـن سـمات النمـوذج العصبـي الـذي تأبـي عليـه انفعاليتـه المندفعـة الثبـات أو الاسـتقرار علـى وضـع أو حـال، وكان سـلطان العويـس كثيـر الأسـفار والرحـلات، ولـم يكـن دافعـه إليهـا التجـارة والعمـل فحسـب، بـل الرغبـة فـي التغييـر والتجديـد والتحـرر مـن الارتبـاط بمـكان أو زمـان. وعـدم الالتـزام بالنظـام، وقـد سـئل عـن ذلـك فأجـاب:

(أنـا لسـت منحـازاً لشـيء؛ لا العمـل ولا الشـعر، ولسـت مـتمسكاً بمبـدأ فـي الحيـاة اليوميـة، حتـى الشـعر لسـت حـاد التوجـه لـه؛ وبشـكل عـام، أنـا واحـد مـن (الملطشـين) فـي هـذه الدنيـا، وتفكيـري الأسـاس هـو أن اللـه خلـق الحيـاة كـي تعـاش، إن الحيـاة لا تنتظـر الإنسـان حتـى يفـرغ من مشـاغله، إن شـجرة التفـاح لا تنتظـر أحـداً، وكذلـك الـوردة حيـن تتفتـح، وأهـم شـيء أقـوم بـه هـو ألا يكـون عنـدي ارتبـاط، أنـا لا أحـب القيـود...).

إن سـرعة تقلّبـه، وحبـه للتغييـر مَردُّهمـا أيضـاً إلـى فاعليتـه الضعيفـة، وهـو يعترف بأنـه يـزاول الكسـل بعض الأحيـان، وضعـف الفعليـة سـمة النمـوذج العصبي.

ويدخـل فـي هـذا البـاب ممـا يتعلـق بتقلبـه، ممارسـته لأعمـال عديـدة فـي

(1) كتاب سلطان العويس.. تاجر استهواه الشعر ص (64)، أورد الأستاذ الخشن نوادر ومداعبات له.

حياتـــه؛ إذ لـم يثبت على عمـل معيـن، حتـى ليداعبـه صديقـه الشـاعر ناجـي بيضـون فـي هـذا المجـال قائـلاً:

شـاعر للحـب كنـا لقريـض نرتجيـه

فغدونـا بعـد هـذا الاقتـراض نرتجيـه

كلمـا فلَّـس بنـك وكَّلـوا سـلطان فيـه

ولا ينفـي هـذه الصفـة عنـه نجاحـه فـي الأعمـال التجاريـة؛ فهـو يعتـرف فـي تصريــح لـه: إن العمـل التجـاري يمكـن أن يسيِّـره مـن يوكلهـم عنـه. كمـا يعترف أن اهتمامـه بالشـعر يفـوق اهتمامـه بالتجـارة؛ فقـد كان الشـعر مـلاذه مـن قيـود الحيـاة، مثلمـا كـان وسـيلة لتصريـف طاقتـه الانفعاليـة، ونزعتـه إلـى الحلـم.

ويـدرج فـي بـاب نقـص فاعليتـه تراخيـه فـي جمـع شـعره، وفتـوره في الإنتـاج الشـعري، لا تتجـاوز أبيـات بعضهـا عـدد أصابـع اليـد، ومرد ذلـك إلى الاسـتجابة العفويـة لدواعـي الشـعر دون أن يكـون لـلإرادة والتصميـم دور فـي ذلك.

إن مــن شــأن العصبييــن أن يدفعهــم انفعالهــم الشــديد إلــى الاندفــاع فــي مشــاريع كثيــرة ومغامــرات طامحــة، حتــى إذا شــرعوا فــي تنفيذهــا تراجعــوا بحكــم ضعــف فاعليتهــم عــن متابعتهــا، يســاعدهم علــى ذلــك التراجــع فتــور فــي الرغبــة وتــراخٍ فــي الانفعــال، الــذي يحفزهــم بعنـف ثــم يتلاشــى ســريعاً، مــع ملــل ســريع تجــاه مــا صممــوا علــى تنفيــذه.

3. الإقبال على الحياة ومتعها:

كان ذكـر الشـاعر سـلطان العويـس للمـرأة والخمـر وليـد مـزاج انفعالـي، يلتقـي فيـه مـع الكثيـر مـن الشـعراء؛ فهـو ذو مـزاج نفسـي يقتـرب مـن طبـع أبـــي نـواس وديـك الجـن، وقـد لقبـه قرنـاؤه بديـك الجـن؛ وكانـوا محقيـن،

إذ قرنوا بينه وبين ذلك الشاعر من حيث الولع بالحياة؛ ذلك أن انفعالية الشاعر الشديدة ورغبته الملحة في تجاوز الواقع، يوفران له الهرب من قسوة الحياة، ويحققان نزوعه إلى الخروج عليه وتجديدها، وهو يصور عالم المرأة وكأنه الجنة المشتهاة التي يفر إليها هرباً من قيود الحياة.

لم أدر لما تلاقينا على ظمأ — في أي برد من الأشواق نلتحف
والحب يخلق في صحراء جنته — .... اروض والأنغام واللطف
صب تفانى، ومحبوب سما خلقاً — هل في الحياة نعيم فوق ما أصف؟

ولا ينفع هنا عذل العذال، ولا تحكيم العقل في تغيير ما فطر عليه؛ فالطبع من الثوابت التي لا تتبدل ولو كره العاذلون.

أقول لعاذلي دعني وشأني — فليس الأمر يؤخذ بالظنون
فلو ترى ما رأيت لكنت مثلي — وتأخذ ما أخذت من الجنون
وقد حاربت عقلي في هواها — وما أنا للحجا بالمستكين

ويعترف الشاعر بأن نفسه آوت إلى بيئة خلقه الله فيها؛ فلا يلام على ما خلقه الله له من طبع ومزاج:

صبوا كؤوس الهوى أحبابنا ودعوا — من بات في جهله أو ظل منغلقا
فلا يلام محب في تدلهه — دعاه شوق فلبى ثمه اعتنقا
إن يخل يومك من ذكرى معطرة — فقد أضعت من الأيام ما عبقا
ألقِ الرحال ودع دنيا تكابدها — فالنفس آوت إلى بيت لها خلقا

على أن عالم الحب لدى الشاعر العويس مغاير لمفهوم الحب الشائع

عند الناس؛ فهو يحاول أن يسمو به إلى آفاق من الرفعة والتسامي أحياناً، غير أن طبعه الانفعالي يشده إلى دنيا الواقع؛ ومن قبله حاول الشاعر بشار بن برد العصبي المزاج أن يتدله بحب عبدة لكنه كان أبعد الناس عن ذلك الحب العفيف المتسامي، مما يقودنا إلى الحديث عن النزعة الحسية في شعره.

4. النزعة الحسية في شعر العويس:

الحواس منافذ العضوية إلى الواقع، والشاعر سلطان العويس فنان فطري، مرهف الإحساس، لا يستطيع بحكم انفعاليته الشديدة العابرة أن يتجاوز الواقع فيما يختاره من صور أو كلمات. لذا تشيع في شعره المرئيات والمسموعات والمشمومات، ويختار تعابيره من عالم المحسوس دون أن يذهب بعيداً في الخيال التجريدي أو الفكر التأملي الفلسفي، والكلمة عنده لها مدلولها الموضوعي؛ فلا انزياحات لغوية، ولا غموض، ولا تراكيب. إنها تحس أكثر مما تُفهِم، ويقترن ذلك كله ببساطة وعفوية في التفاؤل الفني، تقر به من عامة الناس الذين لم يفسد أذواقهم التصنع البياني أو الغموض والاجترار النفسي، وإنما يتمتعون بالجمال الحسي في عفويته وبراءته وكما أوجدته الطبيعة.

ولا شك أن مرد هذه النزعة إلى طبع الشاعر الذي يقدس الانفعال الحسي العابر، والتلاؤم مع الطبيعة في عفويتها وبساطتها، تعقيد أو جنوح.

وفي شعر العويس عفوية الشعر الجاهلي وبساطته وقربه من الواقع والطبيعة، على أننا نخطئ الظن في أن الشاعر لا يجهد في التعبير عن مشاعره. إن هذا الشعر الذي يخيل إلينا أنه عفوي وبسيط وصادق هو ثمرة معاناة انفعالية يمر بها الشاعر، لكنها تُصفَّى وتهذَّب طويلاً في وجدانه حتى تظهر للناس وكأنها عفوية.

إن إبداع مثل هذا اللون من الشعر أشبه بما تبذله الشجرة من مخاض حين تصوغ أزهارها وثمارها، فيبدو لنا عملها عفوياً وطبيعياً، ولكنه ثمرة المعاناة والمكابدة والجهد الطويل والاستغراق الكلي في الموقف؛ فمن صوره الحسية قوله:

وإذ برعمت أزهار روض أخالها أحاديث أشواق من الصب للصب

مما يذكرنا بقول بشار بن برد:

وحديث كأنه قطع الروض زهتها الحمراء والصفراء

على أن الشاعر العويس أجاد في محاكاته، ومن طريف شعره الحسي:

عصى ردفه أن ينثني بانثنائه فأعجبه العصيان فابتسم الثغر

ومن صوره الحسية الرائعة قوله:

دعوا الحب يأخذ ما تبقى فإنني وجدت رماد الحب أقوى من الحب

وفي قوله (رماد الحب) صورة حسية فيها من العمق ما يتجاوز كل رمز أو تجريد.

ويجيد في وصف المقل معتمداً على التشبيه المحسوس:

كأنما المقل الحيرى بأدمعها زوارق من خلال الموج تنتقل

5. **الأريحية والتفريط:**

من سمات النموذج العصبي التبذير والسخاء؛ فالمال في نظر أصحابه وسيلة للحياة، وليس هدفاً لها، ويؤثر عن بشار بن برد أنه نال كثيراً من الأعطيات في حياته، ما كان يمكن أن يكون ثروة، لكنه بددها، وشهد أيام عسر في آخر عمره، حتى ليقول مخاطباً جاريته:

خذي من يدي ما قل إن زماننا عسير ومعروف الرجال رقيق

ومع أن الشاعر العويس جمع ثروة طائلة، إلا أنه لا يعد المال غاية في حد ذاته، إنه وسيلة للحياة، وسبيل إلى خدمتها، يشهد على ذلك قوله مخاطباً المحبوبة:

لن يؤثر المال قلب قد سكنتيه   إليك مالي فما مالي سوى ورق

ومن حديثك درٌّ لست أحصيه   لي من عيونك أموال أكدسها

ومما يبرهن على ذلك أعماله الإنسانية والخيرية، وهي أكبر شاهد على إعلائه قيم الحياة الرفيعة فوق المال؛ فهو لم يكن كالأغنياء الأشحاء، مع أنه عانى في بداية حياته من قسوة العيش، وما زالت صورة العمل في البحر لا تبرح مخيلته، لكن كرم نفسه بسط يده وأبعده عن الشح والحرص.

إن طبعه الذي يدفعه إلى التحدي، وطموحه المادي نابع من الرغبة في تأكيد الذات في الحياة وطلب المغامرة والتجديد، ولكنه في آخر المطاف طموح إيجابي يصب طاقاته الانفعالية الهائلة في خدمة المجتمع ونفع الناس، وأفراد النموذج العصبي غيريون بعيدون عن الأنانية والأثرة.

6. **التجديد الفني:**

ما من شاعر يقبل على نظم الشعر إلا ويشعر أنه يقدم إضافة جديدة لسابقيه، على أن كثيراً من الشعراء لا يستطيعون التخلص من الموروث في الأساليب والصور والمفردات والأغراض وطرائق التناول، وتتسع دائرة الموروث من الزمن، فيصبح كل جديد نمطاً يحتذى، فلا يضيف جديداً عليه إلا المتميزون من الشعراء الذين يتمتعون بالأصالة والاستقلال الذاتي والقدرة على إقناع القراء بجدية تطويرهم.

والشاعر سلطان العويس من خلال شعره مجدد من ناحيتين؛ فهو

أولاً لا يكتب إلا عن مشاعره الصادقة التي تدفعه إلى النظم، وصفّى ذلك الاتجاهُ شعرَه من كل مشاعر كاذبة أو زائفة أو مجاملة.

والأمر الثاني أنه يعبر عن تجربته الشعرية بإيجاز وتكثيف وطواعية، ولعل جياده إذا قيست إلى جياد سواه من الشعراء تتجاوز المألوف الشائع عن كل شعر، ومرد ذلك في رأيي إلى أنه لم يثقف نفسه ثقافة شعرية بالرجوع إلى دواوين الشعراء، بل إلى أمهات كتب التراث كالكامل للمبرد والبيان والتبيين للجاحظ. وتمتاز مختارات هذه الكتب الأدبية في أنها مقطوعات قصيرة عملت آلاف الأذواق عبر الزمن على تصفيتها واصطفائها من عيون الشعر العربي. إن تواصل الأديب مع المختار من الأدب يبعده عن الغث من الشعر، ويضعه في دائرة الشعر الراقي، يضاف إلى ذلك أنه يجنبه الاقتداء بالقصائد الطويلة التي تحوي غالباً الجيد والرديء، ولذلك نهج الشاعر العويس نهج المقطوعات الجيدة القصيرة، وحاكاها متخذاً إياها نمطاً يقتدي به، وتمتاز هذه المختارات أنها تنقل إحساساً معيناً يعبر عنه الشاعر في أبيات محدودة، وتقوم على نغمة فكرية أو عاطفية واحدة لا تتجاوزها، ولعل من أسباب اختياره ذلك النهج ظروف حياته التي لا تسمح له بالإطالة، أو تخصيص وقت فضفاض لنظم المطولات، على أن البيئة الثقافية والحياتية ليست وحدها بقادرة على تعليل ذلك المنحى في شعره، وإنما قد يعلل ذلك بطبعه – لأنه شاعر من النموذج العصبي يستجيب لدواعي الحس المفرط الذي يقبل مندفعاً ثم ينطفئ سريعاً – وإلى ضيق في ساحة الشعور لديه؛ فهو لا يذهب بعيداً في التحليل وتعميق ساحة الإحساس، يضاف إلى ذلك نقص في الفاعلية التي تدفع الأديب إلى اختيار أقصر الطرق جهداً وأقلها عناء، وقد أثر عن شاعرنا سرعة ملله وكرهه للقيود أو التركيز البعيد؛ هذه الخصائص كلها دفعت الشاعر سلطان العويس إلى ضروب من التجديد، تقوم على تكثيف الموقف الشعري والتعبير عن

دفقة إحساسه العابر العنيف بمقطوعات محدودة كتب لها الانتشار؛ فهي تعكس مواقف انفعالية قوية، وهي مبنية على فكرة واحدة، أو إحساس محدود يعبر عنه بيسر وبساطة وبلغة حسية واضحة ذات دلالات مباشرة؛ فالكلمة تظل في دائرة معناها الذي وضعت له دون انزياح، وهي تختار مضمخة بشعور عنيف وترتفع دفقة الشعور مع كل بيت يضاف إلى المقطوعة إلى أن يجتمع التأثير في آخرها.

ألا كل شيء في سبيلك هين نسيت الذي قد كان منذ زمان
فإن تسأليني عن حياتي فإنها بدونك ألفاظ بغير معاني

وتبدو آثار نزعته الواقعية جلية تحمل شعوره الدافق في المقطوعة التالية:

ارقصي يا شهب فالبدر انثنى ولنُغنِّ في الثريا أو زحل
جسد بضٌّ وطرف ناعس وابتسام يتوارى في القبل
وحبيب كلما عانقته قلت: أهلاً يا غرامي فاشتعل

هذه النزعة الحسية الواقعية سمة من سمات شعراء النموذج العصبي، ولقد ورد عن بشار بن برد أنه أنزل الشعر من عليائه إلى دنيا الواقع والحس. ومرد ذلك أن أصحاب ذلك الطبع يرون الحياة بمنافذ حسهم، ولا يتجاوزون واقعهم وما حولهم إلى آفاق من التجديد والتأمل.

ولم يتجاوز سلطان العويس واقعه في كل ما كتب: وصف حبه بنزعة حسية، ووصف الخمرة، ومجالس الغناء، وأحب لبنان فوصفه وصفاً رائعاً، وآلمه ما شاهده فيه من قتل ودمار فبكاه بحسرة، وهزت مشاعره أم كلثوم وهي تغني، فمجد فنَّها، وتألَّم لتفرق أصحابه وندمائه

بعد اجتماع، فتحسر على فراقهم، ولم يفرد للموضوعات المجردة إلا قصائد محدودة؛ منها قصيدة تحية الشيخ زايد رئيس اتحاد الإمارات العربية المتحدة وسلفه، دعا فيها إلى نهضة وطنه بالعلم والعمل والتعاون.

وللشاعر سلطان رأي في رسالة الشعر القومية والاجتماعية؛ فهو يرى أن دور الشاعر الاجتماعي والقومي في عصرنا لا يعدو التوجيه، أما الوطن فيحتاج إلى بناء وعمل وتقنية وسواعد لا تكل.

لا تقنعوا من حاضر بنواله ... إن القناعة للشباب فناء

كل يشد على يمين رفيقه ... إن التآزر في الحياة بناء

والأديب، أي أديب، لا يقاس إخلاصه للوطن إلا من خلال التطابق بين أعماله وأقواله، وكانت حياة سلطان العويس بحد ذاتها شاهداً على طموحه الوطني والفردي، فقد حقق بأعماله التجارية كل ما كان يطمح إليه من تمرد على واقعه الذاتي، وحقق من خلال أعماله الإنسانية كل نزعاته إلى الخير والقيم السامية، وحقق من خلال عمله الأدبي ما كان يشعر به من نزوع إلى المطلق؛ فالفن تعويض عن الواقع وتمرد عليه، وثورة على السكون، ومن شأن أفراد النموذج الانفعالي أن يجمعوا بين الواقع و الخيال؛ فالمؤسسة الاجتماعية بقيودها وأعرافها لم تستطع أن تطوعهم لعوالمها الصارمة، ولذلك تبدو حياتهم أشبه بحلم يتوق إلى رفض الواقع وتبديله، والثورة عليه، وتجاوزه ولو بالحلم، وهم في ذلك مجددون، ولكنهم يميلون إلى السأم والتقلب؛ فسرعان ما يتخلون عن أهدافهم، ولكن بعد أن يفتر إحساسهم تجاهها، على أن تمردهم على الواقع يقودهم إلى دروب من المخالفة والتجديد.

كانت سيرة حياة الشاعر هكذا؛ مزيجاً من الحلم والواقع، وكان

فنه تحدياً لظروف بيئته الثقافية التي كانت بيئة محدودة، وتقتصر على اجترار التراث وعدم الخروج من دائرته. فجدد في شعره مثلما جدد في رسم منحى حياته على قدر ما سمحت له الظروف الاجتماعية، وبحدود ما أسعفته شخصيته الغنية، فنال بحق ريادة الشعر الحديث، وعدَّ ممهداً لدروب الحداثة الأدبية في الخليج العربي.

الرؤية الشعرية
عند سلطان العويس

إذا تجاوزنا القصائد التي أملتها المناسبات الرسمية في ديوان الشاعر سلطان العويس، وقصائد أخرى أطلق أنفاسه الشعرية فيها، فإن أكثر مقطوعاته يتراوح طولها من البيتين وعشرة أبيات، مما يثبت التزام الشاعر بتكثيف رؤيته الشعرية، وتطبيق نظريته في أن الشعر فكرة مكثفة، أو لمح يشدنا بلون من الإيجاز، ولكي ينجح الشاعر في تكثيف رؤيته بأبيات قليلة معبرة لا بد أن يحشد كل مواهبه الفنية التي توفر لقصائده تميزاً فنياً.

إن نظرية اللمح التي أشار إليها الشاعر تلتقي رأى البحتري في الشعر إذا يقول:

والشعر لمح تكفي إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

ذلك أن الإسهاب والتفصيل في الشعر كما عرف عن ابن الرومي يفقد القصيدة بعض تأثيرها وزخمها، ويقربها من النثر من حيث الاهتمام بالجزئيات والتفصيلات التي تضعف التركيز على الفكرة العامة للأبيات والمشاعر الرئيسية السائدة.

ولا يعني ذلك أن بعض المطولات لا تتوافر لها الجودة الفنية، غير أن جودة أبياتها متفاوتة؛ ففي كل قصيدة طويلة أبيات جيدة، وهي التي تسير بين الناس لجودتها، وقد ترقى القصيدة الطويلة إلى مستوى من الجودة يجعل أكثر أبياتها من الروائع المبدعة.

والشاعر سلطان العويس متأثر بعالم اللؤلؤ؛ فهو صياد لآلئ، يجمع في شبكته المحار الكثير، ولكنه لا يجد من اللآلئ فيها إلا القليل، وتلك سنة الطبيعة، غير أن ما غلا ثمنه من هذا الصيد، وما يهم الناس منه في آخر المطاف هو اللآلئ دون سواها من الأصداف الفارغة.

وما أشبه الشاعر الذي يطيل ويسهب بصيد اللؤلؤ الذي يقدم لنا ما يصيده أو يجمعه من الأصداف ثم يقول: اختر من هذا المحار كله لآلئ الكلمات.

لقد آثر الشاعر سلطان العويس أن يريحنا من عملية الفرز والتصفية، وأراد أن يقدم لنا من خلال تلك المقطوعات القصيرة التي كشف فيها إلهامه الشعري لآلئ الكلام مستخدماً وسائل كثيرة لنصل إليها، غير أن سنة الطبيعة التي تنطبق على صيد اللآلئ إنما تنطبق أيضاً على اصطياد الكلمة المعبرة. فالشاعر لا بد له من أن يجول ليبين ويفصح إلى أن يصل إلى ما يريد إبلاغه. والشعراء متفاوتون في مدى اتساع آفاقهم الشعرية، ولعل الشاعر سلطان العويس من أبرزهم تكثيفاً واستصفاء للكلام، ولا يمكن أن نتغاضى عن دور حياته المهنية العملية في عالم التجارة؛ فهي تقوم على كثير من العمل وقليل من الكلام، إلى جانب قراءاته المتواصلة للمختارات الشعرية.

يقول الشاعر العويس: (بالكلمة الجميلة أيضاً يعيش الإنسان، والشعر هو سيد الكلام الجميل. يعمل على استقطاب الآخرين، وشدهم إلى مضطرم جاذبيته، والثناء على الشعر يحفز من يقوله؛ الشعر دوماً يشعرك

أنـك تفعـل شـيئاً مهمـاً فـي هـذه الحيـاة، إننـا نسـتطيع أن نجـد أنفسـنا فـي الخطـاب الشـعري).

والشـاعر العويـس ليـس بحاجـة للثنـاء علـى شـعره؛ فشـعره يفصـح عـن نفسـه؛ لأنـه يكتـب لشـيء حميـم فـي ذاتـه، وشـعر الغـزل والحـب هـو أكثـر الأبـواب التـي طرقهـا.

والشـاعر الـذي يتنـاول فـي شـعره أغراضـاً متنوعـة يجـد أمامـه الآفـاق مشـرعة لخيالـه وفنـه، ونلمـح أن العويـس يبتـدع الجديـد والطريـف فـي معانـي الغـزل بالقليـل مـن التعبيـر.

يقـول:

ماذا أريد من الدنيا وفاتنتي قربي، وراحتها مضمومة بيدي
إذا نظرت إليها جُلُّ أسئلتي أأنت في مقلتي؟ أم أنت في كبدي؟
أنت الوحيدة في الدنيا فلا أحد بقادر يجعل الدنيا بلا أحد

فالجـدة بالمعنـى نلمسـه فـي البيـت الأخيـر؛ لأنـه يتضمـن معنـى فلسـفياً بعيـداً، فهـو يريـد أن ينفـي وحدانيـة الحبيبـة مـن الوجـود؛ لأنـه يريـد أن تبقـى محبوبتـه سـيدة هـذا الكـون لا يشـاركها فـي الوجـود أحـد حتـى وحدتهـا.

كمـا يخشـى الشـاعر أن يقـدم شـعره بمـا سـبق لـه أن تناولـه فـي قصائـد سـابقة فيكـرر نفسـه، لكنـه لا يسـتطيع أن يتحـرر مـن ذاتـه التـي تسـم شـعره كلـه رغمـاً عنـه، فيقـول:

كل يكرر نفسه في شعره فكأن ما قد قال بيت واحد

علـى أن ولعـه بالتجديـد قـد دفعـه إلـى أن يجهـد كثيـراً ليجـد الفكـرة الطريفـة فـي التعبيـر الوجيـز، ومـن ذلـك قولـه:

أرى الحسن فيك ليس في الأرض مثله فهل ما أرى صدق أم العين تجحد؟
بلى، إنه حق، وصدق، وشاهدي إذا هي ما مرت على الناس تسجد

فهو يستعين في هذين البيتين بالبراهين العقلية الطريفة، إذ يسأل نفسه ليطمئنها: هل محبوبته أجمل الخلق؟ ثم يخلص إلى قناعة وجدانية بأنها الأجمل؛ لأن الناس يسجدون لها إذا مرت في الطريق، وهو منهج يعرف في البلاغة بتجاهل العارف؛ فهو يسأل نفسه سؤال مقرر لا مستخبر، ثم يقنع نفسه ببرهان أقامه من مشاعره وأحاسيسه.

ومن مقطوعاته التي حاكى بها أصحاب المختارات الشعرية السائرة قوله:

وقالت سليمى ما عهدتك شاعرا فقلت لها: إن المصاب ينوح
إذا مسَّ قلبَ المرء بعضٌ من الهوى سيرتد بعد العي وهو فصيح

وهو مدخل لطيف إلى قلب المحبوبة، لم يسبقه فيه شاعر؛ فالحب يفجر فينا القدرة على التعبير والإفصاح، على نقيض ما هو متداول في الشعر من أن الحب يعقد اللسان، ويعيي عن البيان.

ولا تقلُّ قصائده في الوصف الحسي طرافة وحسن ديباجة عن شعره في وصف المشاعر الإنسانية والنفسية؛ فهو يصف لبنان بريشة رسام بارع إذ يقول:

يد الخلاق أجزلت العطايا فأغدقت النعيم بلا حدود
فمن كَرْمٍ تمدَّدَ في الزوايا على بيت تجلبب بالورود
كأن الأمسيات به أُعدَّت مهابط للجمال من الخلود

إذا أشرفت من سفح مطل على سفح تحدّر من صعود
تخال الأنجمَ الزهر استطابت مبيتاً بين هاتيك النجود

ولا يقل تصويره لحالات وجده وهيامه عن تصوير المعالم المحسوسة؛ فهو بارع في تمثيل الحالة النفسية على إيجاز الكلمات، يقول مشخصاً حاله في الحب:

أنا في الحب معتل صحيح أداوي علة فتثور أخرى
كأني قد خلقت ولي ضلوع بها قلبان يعتركان جهرا
فما أدري أأصبح في غرامي سعيداً أم يدير الحب ظهرا

وما سبق لي أن قرأت في حب الوطن والولاء للأرض أبلغَ من قوله في يوم عيد وطنه الإمارات، وقد صاغه في بيتين يغنيان عن معلقة طويلة:

ماذا أقول لأرضي كنت فلذتها كانت بلا بسمة واليوم تبتسم
كانت لنا الأمَّ رغم الجوع ترضعنا واليوم فاض على أفواهنا الدسم

فقد جمع فيهما تاريخ بلده في عهد فقرها وشظف عيشها، وفي عهد نهضتها وازدهارها، ومجد ذلك التطور الذي شهدته، وحمل فيهما شكره لمن كان وراء تلك النهضة.

وإذا أخذنا برأي الشاعر أدونيس وحاولنا أن نتعرف المتحول في شعر العويس، وما هو ثابت مما سبقه إليه السلف لرجحت كفة الجديد، صحيح أن الشاعر سلطان العويس يستلهم تعابير السلف وتراكيبهم، لكنه يفيض على ذلك كله ما يجعل شعره مبتكراً، فقد كتب أبو نواس وغيره

في صحبة الأحباء ومجالس السمر والحنين إلى مضت، وكذلك كتب العويس يتذكر أيام أصحابه في لبنان، فقال:

وصحبة ما أزال الدهر أذكرهم　　كأنما زيد في أيامهم عمر
كأساً وثغراً تعاطوا في موائدهم　　لم يدر ساقيهمو من أيها سكروا
بحانة ما تزال الغيد ترقبهم　　في كل ركن بها من علمهم خبر
باتوا مع الليل أقماراً بلا وسن　　وفي الصباح حوتهم فرشها السرر

فالقصيدة تثبت امتلاك الشاعر لأساليب القدامى وطريقة تعبيرهم ونسجهم، لكنها تتجاوز ذلك القديم إلى دروب من الابتكار الفني وطرافة المعنى؛ فعمر الصديق يخلد وينمو في الذكرى ولو طواه الزمن، وهو معنى عصري يشير إلى الزمن الفني، ودور الفن فيما يضفيه من خلود. كما نلاحظ التكثيف للرؤية والإيجاز الذي يستعصي الفكرة أو الإحساس ويقدمها للناس وهي تحتفظ بحرارة روح الخلق الشعري. ولو أن بعض شعرائنا المعاصرين تدربوا على أعلام الشعر من القدامى -مثلما فعل شاعرنا- لأقاموا تواصلاً بين روح التراث وأساليب التعبير فيه والحداثة دون أن يفقد الشعر رواءه وصفاءه.

والشاعر سلطان العويس لا يتنكر للشعر حديث، بل يعترف بأهمية التجديد فيقول:

(الناس في العادة أقرب إلى تجدد الحياة وانبثاقها، وبالتالي فعلى الإنسان ألا يرفض أي جديد لمجرد أنه جديد، الشعر الحر أو شعر الحداثة من تفعيلي وغير تفعيلي هو شعر جديد، ينبغي ألا نرفضه دون أن نتعرفه ملياً، أو نصغي إلى أصوات شعرائه في العمق، كذلك لا ينبغي رفضه قبل أن يكمل مشروعه الأدبي الحضاري ويرسي قيمه الإبداعية الناضجة).

وهو يرى أن الزمن يحكم على ذلك الشعر بعدما فرض نفسه علينا، ويعتقد أنه لم يأتِ من فراغ، وهو يتابع رموزه وأعلامه من أمثال: بدر شاكر السياب وأدونيس، ومحمود درويش، كما يعجب بشعر نزار قباني الذي نجح في إيصال صوته للناس، لكن إعجابه بالجديد لم يحفزه إلى كتابة قصيدة النثر الحديثة وحدة عضوية تقوم على بنية تركيبية مغايرة لشعر المقطوعة والتفعيلة؛ لأن للقصيدة الحديثة وحدة عضوية تقوم على حشد من المشاعر والأفكار والصور، وتعزف على أوتار متعددة؛ فهي أشبه بسيمفونية لم تتهيأ لتذوقها بعد العقلية العربية السائدة والمفطورة على البساطة والوضوح، وعلى صفاء الفن وعفويته، كما لم يستطع الشعر الحديث بعد أن تحدى الجذور العميقة للعناصر الدرامية الشعبية التي يتضمنها الشعر التقليدي بما فيه من إيقاع وإحساس ملتصق بالحياة، باستثناء صفوة من شعراء الحداثة الذين استطاعوا أن يستغلوا تلك العناصر الدرامية، ويستصفوها من التراث كالسياب والبياتي ونزار قباني.

والشاعر سلطان العويس يدرك جيداً قيمة التراث وأثره في حياة الجماهير التي يكتب لها، ويعلم أن رموزه «التراث» ملتحمة في وجدان الإنسان العربي؛ فعلى الشاعر أن يحسن النفاذ إلى قلوب الناس بمخاطبتهم من خلال رموز تراثنا العربي، ومفاهيمه الموروثة.

فالشعب العربي لا يزال يحتفظ بصورة الحب المثالي التي رسمها الأدباء العرب، فصحاؤهم وعاميوهم، للحب العذري من خلال سير أبطاله كقيس وليلى وعنترة وعبلة، والشعر العربي فصيحه وعاميه ما زال يكرر صورة طبيب الهوى الذي يلتمس منه الإنسان عبثاً أن يداوي علة القلوب. ولذلك ينطلق الشاعر العويس من هذا التراث في مخاطبة الناس، كقوله:

ماذا أردت من التسويف سيدتي وفي شفاهك لو قبلتها عمر
لا تجعلي الحب «قيساً» تحلمين به قيس له صفة ما حازها البشر

وكذلك قوله:

أهدي الطبيب شعور أصحاب الهوى هل يستطيع علاجهم من غادر؟
لما رأوه سقاهمُ من نظرة خَمْرَ الوعود فيا له من ماكر!

وهو شعر ينفذ إلى قلوب شعب ما زال يردد في أغانيه:

جس الطبيب لي نبضي

فقلت له: اترك يدي يا سيدي أترك يدي

إن التألم في كبدي

إن تجربة الشاعر سلطان العويس الشعرية التي أقامها على رؤية فنية واعية جديرة أن نتمعن فيها بعد أن تعرضت ذاكرة الإنسان العربي للخواء بسبب تعذر حفظ الشعر الحديث، وكان من قبل يملأ ذاكرته بمثل هذه المقطوعات القصيرة والأبيات السائرة والقصائد الطويلة، فتكون له زاداً ثقافياً وفنياً ورابطاً بالتراث.

الشاعر الإنسان

مثلما يحزم المهاجر حقائبه إلى رحيل لا عودة بعده، وكما تودع الوردة المحتضرة النباتة في قلب الصحراء الشمس الغاربة، رحل عنا سلطان العويس الإنسان الشاعر أو الشاعر الإنسان، وآثر أن يلحق بكوكبة من أبرز أعلام الشعر العربي سبقته إلى بارئها، فكان آخر فارس يسقط في الساح بعد نزار قباني ومحمد مهدي الجواهري وعبدالوهاب البياتي وغيرهم.

ترى هل رأى هؤلاء المبدعون أن عالمنا القاسي لم يعد مقراً مناسباً لربة الإلهام، وأن سماءه الملبدة بالغيوم السود هجرها الشعر؛ إذ لا مكان له بعد في تربة لا تنبت إلا الحقد والكراهية وكل أشكال التطرف، فتعجلوا الرحيل مع إطلالة الألف الثالثة التي جاءت إلينا تحمل أمل التغيير دون أن تدرك الإنسانية أن لا تغيير يجدي ما لم تعد إلى المنابع؛ إلى القيم النبيلة التي أعلاها الشعر، ونادت بها الديانات بعيداً عن الحلول المادية التي يزعم دعاة التغيير أنها السبيل إلى مجتمع إنساني أمثل.

والشاعر سلطان العويس الذي أصبح اسمه على كل لسان، وعانقته القلوب قبل أن تعرفه نفذ إلى مشاعرنا، واكتسب تقديرنا ومحبتنا لأنه كان إنساناً قبل أن يكون شاعراً؛ وما قيمة الكلمة إذا لم تكن صدى لهواجسنا، وتعبيراً عن آمالنا وأحلامنا.

وسلطان العويس، الراحل عنا عن عمر يناهز خمسة وسبعين عاماً، ظل في نظرنا شاباً يواكب روح العصر، ويدعو إلى التجدد، ويستقبل الحياة بابتسامة المتفائل الواثق، دون أن تسلمه السنون إلى جمود يؤثر عن كبار السن، أو تصرفه الثروة عن رسالته الإنسانية التي آمن بها.

ولد سلطان العويس في قرية الحيرة، بإمارة الشارقة عام 1925م. وكان والده علي العويس شاعراً نبطياً ورث عنه اهتمامه بالشعر مثلما ورث عنه حرفة تجارة اللؤلؤ، وهي تجارة يحف بها الجمال واللطف والذوق، وتهيئ لمحترفها فرصاً واسعة للاحتكاك بالناس، والسفر المتواصل الذي يوسع الأفق، ويغني الإنسان بالتجارب، إلا أنها لم تصرفه عن الثقافة والأدب، فعكف على قراءة التراث والنتاج الشعري لمعاصريه.

ومع أن نتاجه الشعري جاء بعد الخمسين؛ لاشتغاله بشعر معاصريه، فإن سنوات التهيئة وفرت له فرصة التأمل الزاخر بديباجة الشعر العربي وأساليب التعبير عن المشاعر والأفكار، فحدد لنفسه منهجاً شعرياً يتلقف العناصر التي يقوم عليها الشعر الجيد، واستهوته من هذا الشعر المقاطع الشعرية القصيرة التي يجمع فيها الإيجاز مع إعطاء الفكرة والإحساس تألقاً من التعبير اللغوي، لذلك لم يكن يشعر بالحاجة إلى تطويل قصائده.

كان الشعر عنده فكرة تومض أو إحساساً يغزوه، فيعبر عنهما بالبيت أو البيتين اللذين يغنيان عن إسهاب يقود إلى الفضول أو يخفف من حرارة التجربة، وهكذا بدت مقطوعاته تقوم على التفرد والإدهاش، وحسن

العـرض، وطرافـة الفكـرة وتفردهـا فـي كثيـر مـن الأحيـان، فلـم يكـن مقلـداً ولا متصيـداً لأسـاليب مـن سـبقوه أو أفكارهـم إلا فـي المعانـي المشـتركة بيـن الشـعراء، كوصـف عـذاب المحـب ونحولـه والحيـف الواقـع عليـه مـن المحبـوب، إلا أنـه يخرجهـا بأسـلوب مبتكـر علـى طريقـة القدامـى فـي تجديـد أسـاليب عـرض الفكـرة ولـو كانـت متداولـة، مسـتعيناً بـروح التـراث وطرائـق تعبيـره. يقـول مـن مقطوعـة لـه عنوانهـا «رمـاد الحـب»:

دعوا الحبّ يأخذ ما تبقى فإنني وجدتُ رماد الحب أقوى من الحب

وهـذه فكـرة طريفـة لـم يسـبقه إلـى عرضهـا شـاعر، وإن كانـت متداولـة، ومـن المبتكـر الطريـف قولـه فـي مقطوعـة عنوانهـا «انطـلاق العقـل»:

دعوا ذا العقل منطلقاً ليرقى فكل قيودنا رمز انحطاط
أتينا للحياة بلا شروط بأي الحق نوضع في الرباط؟

ومن الطريف المبتكر أيضاً قوله مخاطباً فتاة مغربية تعمل مضيفة في الطيارة:

تتكلمين المغربية لهجة عربية لكنها لا تفهم
فدعي عيونك ترجمان عروبتي لغة العيون أرق منك وأرحم

كان دأب الشـاعر «العويـس» البحـث عـن التجديـد فـي أسـلوبه الـذي لـم يسبقه إليـه أحـد، شـأن صيـاد اللآلـئ الـذي يطـرح فـي البحـر آلاف الأصـداف ليعثـر علـى درة الغـواص، مطبقـاً فـي شـعره قـول البحتـري:

والشعر لمح تكفي إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

فـإن دفعتـه المناسـبات إلـى نظـم قصيـدة مطولـة، لـم يعـدم القـدرة علـى تنـاول الموضـوع بفكـر تحليلـي سـليم، فـإن تحـدث عـن نهضـة الخليـج دعـا الشـبان إلـى الأخـذ بأسـباب العلـم والتعلـم، والتـآزر والتعـاون والغيـرة علـى

مصالح البلاد، والاعتماد على الذات في بناء الوطن وتسليحه، واقتباس ما ينفع من الحضارة الحديثة وطرح الزبد جفاءً:

شدّوا على التعليم شدّة آسر ... بأسيره وتنافسوا برقائه
غرسوا القديم مع الحديث بدقّة ... وزكت ثمار العلم في أبنائه
لم يلههم زيفُ الجديد وإنما ... أخذوا اللباب فأصبحوا بغنائه

لم يكن سلطان العويس متزمتاً، بل آمن بالانفتاح، وبدت أفكاره متوازنة معتدلة جديرة بالتأمل والقبول، فلم يرفض عصره، ولم يحمل على الشعر العربي الحديث، ولم يتقوقع داخل ذاته الفردية، واعتداله هذا يتجلى في الحوار الذي عقدته معه مجلة «الشروق»، إذ بدا نافذ التفكير في آرائه، طبيعياً في ممارسة إنسانيته بلا نزوات ولا اندفاع، كان يحترم كل تجربة شعرية ولو كتبت بالشعر النبطي، أو بأسلوب الشعر الحديث، فهو يقول: »على الإنسان ألا يرفض أي جديد لمجرد أنه جديد، الشعر الحر أو شعر الحداثة هو بلا شك شعر جديد ينبغي ألا نرفضه قبل أن نتعرفه ملياً، أو نصغي إلى أصوات شعرائه في العمق، كذلك لا نرفضه قبل أن يكمل مشروعه الحضاري ويرسي قيمه الإبداعية الناضحة، وهذا الشعر لم يأت من فراغ وهو ليس حالة فنية مستسهلة أو سطحية، وليس ناتجاً عن جهل وعدم دراية وقلة دربه، وإنما هناك أفكار تفصح عن ذاتها يومياً..».

اعتداله هذا يقودنا إلى أنه الإنسان الذي عرف كيف يوائم بين متطلبات الروح والمادة في حياته، ونزعته التوفيقية تلك تثبت أنه مؤمن بتعايش المتناقضات في حياتنا، فإن اختل ذلك التوازن اضطربت شؤون المجتمع، وأصيبت الشخصية فيه بالتطرف والشذوذ، ومثلما نجح العويس الإنسان في عالمه التجاري، بدا ناجحاً في تلبية متطلبات

مجتمعه من القيم الخيرة في الحق والجمال، فشجع الأدب بجائزة سخية أصبحت مشروعاً وطنياً في بلده، ولم تمنعه سنوات عمره من الوفاء بتطلعه إلى الجمال؛ جمال المرأة والطبيعة وكل ما يحرك عواطفه من الحسن. وشعره الغزلي لم يكن صدى لمغامرات حقيقية يخوضها مع المرأة، وإنما هو عمل فني يجسده في شعره مثلما يرسم الفنان أي منظر يهز مشاعره، ولذلك نلاحظ أن العويس يكتب البيت أو البيتين تعبيراً عن إعجابه بجمال أي امرأة تثير توقه إلى الجمال، وما أكثر المناسبات التي تجمعه بالمرأة، ولا يتورع عن التصريح بأسماء متغزلاته ببراءة، ويبدو أنهن كن يتقبلن منه مداعباته الغزلية بطيب خاطر؛ لأنهن يدركن أنه يلبي حاجة الفنان إلى التعبير في أعماقه، وهو الذي يقول:

إذا مسّ قلب المرء بعض من الهوى سيرتد بعد العي وهو فصيح

لم يكن عشق العويس للمرأة أو تغزله بها نقطة ضعف في شخصيته، بل كان استجابة طبيعية لروح الفنان الذي يقدر الجمال ويحترمه، فهو يبكي شبابه الضائع فيقول:

بحثت عن الشباب بدار قومي فقالت دارُهم: ذهبَ الشبابُ
إذا كلمتُ أنثى أنكرتْني وقالت أختها: نَعَبَ الغرابُ!

وإنسانية الشاعر سلطان العويس تتجلى في دفاعه عن الحرية؛ حرية الأديب، وحرية الأمم، وحرية الفرد، وخاصة حرية المرأة، حتى إنه قرن الحب بالحرية.

وأعتقد أن في جائزة العويس للأدباء أفضل فرصة للكتابة الخلاقة والمسؤولة، وهي فرصة للقيم الإيجابية والحرية، وقد أسعفت هذه الجائزة الكتاب لمواصلة مشروعاتهم بلا ضغوط ولا تنازلات، ووسّع

في أعماقهم هامش الحرية وهاجس المسؤولية حسب رؤية الكاتب المسرحي سعد الله ونوس.

ولو لم يكن سلطان العويس داعية للحرية لما نذر شعره وماله للدفاع عنها، وقد رآها أمراً بديهياً - كما يقول - فقد خلقنا الله أحراراً، فلماذا يكبلنا المجتمع بقيود وحواجز لا مسوغ لها؟ كان العويس يدعو إلى حرية واعية لا فوضوية، لا تنتقص حقوق الفرد، ولا تجور على أعراف المجتمع وتقاليده، وقد نجح في شعره، وفي سلوكه الإنساني في تعليم الناس كيف يمارسون الحرية بنبل، وكيف يحققون لهم ولمجتمعاتهم العدالة، يقول:

وما قلم الأحرار إلا مشاعلٌ ... بليل يُضيء الدرب في المسلك الوَعْرِ
بُعثنا لإتمام المكارم في الدُّنى ... سواءٌ علنيا عاطلٌ وأُولُو الأمرِ
متى كانت الأرحامُ تقذف أعْبُداً ... أتستعبدون الناس والحرُّ كالحُرِّ؟

لقد كان سلطان العويس عظيماً في إنسانيته وستظل صورته في أذهان الأجيال ناصعة، وتأثيره الروحي قوياً وستبقى ذكراه خالدة في ضمير الزمن.

النزعة الإنسانية
في شعر سلطان العويس

ترتد النزعة الإنسانية لدى الشاعر سلطان العويس إلى طبعه؛ فهو إنسان طموح منفتح على آفاق الحياة، تتسع لديه ساحة الشعور فيفيض حبه على الكائنات كلها. يحب الحياة ويتعلق بها، ولا يؤمن بالقيود التي تكبل إنسانيته. وسماحة النفس وكرمها عنده جعلاه يعد الإنسانية أسرته، وتعززت هذه النزعة لديه بتجاربه الحياتية الغنية ومغامراته، عرف الغنى والإفلاس، وعاشر في رحلاته التجارية شتى الأجناس، فاكتشف جوهر الإنسان على اختلاف هويات البشر وأجناسهم، لم يكن ذا أثرة بأن يقيم بينه وبين الناس سدوداً شأن الموسرين الذين يشعرون أن ما لهم يزيدهم انغلاقاً وشحاً، ولم ينظر إلى الحياة بمنظار العقل وحده، بل كان إنساناً عاطفياً يستجيب لنداء الحياة، ويندى قلبه بالحب والإيثار، وتجلت الغيرية لديه في تبرعاته السخية للمجتمعات العربية كأنه يريد أن يقاسم العالم بما خصه الله به من نعمة وبحبوحة، ويلتمس حريته في تحطيم الحدود التي تفصله عن الناس وكأن الإنسانية بيته الكبير. وطبق هذا المبدأ في حياته بالقول والفعل، وهو القائل:

لمن تجمع الأموال يا أحمق الخُطا وأنت من السبعين تدنو لتهرما
كأنك صارعت الليالي ففُتَّها وبتَّ قرير العين فيها لتسلما

وكما لهذين البيتين من صدى محبب لقول الشاعر المتنبي:

ومن أنفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

مع أن المتنبي لم يطبق هذه الحكمة في حياته، فكان مقتصداً مقتراً، بينما بدا هذا المبدأ شعاراً للشاعر سلطان العويس في حياته الحافلة بالسخاء؛ فقد خص شطراً من ماله عن طواعية للبر والإحسان، وإقامة المنشآت الاجتماعية والتربوية وتكريم المبدعين.

وهذه السماحة لدى الشاعر لون من الفروسية التي عرفها الأجداد وقد جفت ينابيعها في عصرنا، لكن العويس عاد ليبعثها من جديد في مؤسسات تنهض بالمجتمع وتسهم في تقدمه ورفعته. والكرم نفحة عاطفية ترفض الذين يحكمون رؤوسهم وحدها في أموالهم، فيكبلون حريتهم الذاتية، ولا يهزهم فرح العطاء قدْر ما تهزهم سعادة الامتلاك والأخذ، فسخر منهم العويس قائلاً:

دعوا ذا العقل منطلقاً ليرقى فكل قيودنا رمز انحطاط
أتينا للحياة بلا شروط بأي الحق نوضع في الرباط

فقد علمته تجربته الحياتية أن الإنسان يجهد بعقله أن يكون جباراً بينما جسده يتأذى من أضعف المخلوقات. يقول:

وجربت الحياة فلم أجدها سوى أني أعيش على النقيض
فمن عقل يحاول كل أمر على جسم يهدّد بالبعوض

وجبروت الإنسان طريق للآلام والهموم، كتب لصديقه الطبيب غازي مؤكداً أن علة المرء بعقله ونفسه لا بجسده:

يا «غازي» الآلام كيف وجدتها   في العقل يوماً أم ترى في الناس؟

وأوصلته الحرية الذاتية ورفضه لكل المواصفات الإنسانية السائدة إلى البحث عن الآخر:

حريتي هي أغلى ما أعيش به   إن لم تكن فحياتي كلها عبث

لقد كانت سعادته في التواصل وإضفاء الطمأنينة على الآخرين، حتى العشق بمعناه الإنساني الواسع. واعترف في إحدى المقابلات فقال: (أنا من موقعي كتاجر لي صديق عمره ثمانون عاماً، وآخر عمره ستون، وثالث ثلاثون عاماً، هذا المزيج من الأعمار جعلني لا أشعر بالفوارق بين الناس، وكتاجر لؤلؤ سابقاً كنت أتعامل مع كبار السن وصغارها، وانعكس أثر ذلك التعامل في حياتي الأدبية والاجتماعية، لم أعش منحصراً في جيل ولا في دائرة اجتماعية بذاتها، وإنما كنت على اختلاط مستمر بالآخرين.. دخلت في تجارب حياتية متباينة لعلها نفعتني وتنفعني في الشعر والحياة معاً، الشاعر أولاً وأخيراً ابن الحياة بتنويعاتها وظروفها كافة). من مقدمة الديوان ص (28).

ويلح العويس في قصائده على إنسانية الشاعر ورسالته لرفعة الإنسان، فخاطب الشعراء وأشاد بدور الأدب في رفع الحيف عن الإنسان المعذب والدفاع عن حقوقه:

هذه أرضكم قد زُيّنت   بخُلُوّ السجن لا بالنُّصُب

كل من يكتب حرفاً ثائراً   هو فينا قبسٌ شبه نبي

ويتجلى الأفق الإنساني في قصائد عدة يحيى فيها البلدان التي زارها، فكان يخالجه شعور بأن البلدان كلها وطنه:

وما مصر للأحرار إلا مظلة وأم رؤوم تلصق الحُرَّ بالصدر

فكم من فتى أوطانه قد نَبَتْ به فضاف ضفاف النيل محترم القدر

شفاؤك يا مصر شفاء عروبتي وتثبيت إسلامي على أمد الدهر

ويحن إلى بلاد الشام، فيرى في غوطتها جنة الخلد كما رآها الشاعر أحمد شوقي، يقول:

يا ليالي الشام يا أهل الهوى سبلاً ترقى ولمّا أرتقِ

جنة الخلد أباحت عيشها ذات يوم وارتقت في أفقي

أنا آت أستقي من بردى قصص المجد وعز المشرق

هذا الأفق الإنساني الواسع لدى الشاعر المتعلق بالمكان يقابله انفتاح إنساني نحو الإنسان، وقد تحفل قصائده بالإخوانيات وتفيض بأحاسيس الشاعر نحو معارفه وأصدقائه في كل بلد، يعبر عن مشاعره نحوهم في مناسبات عدة بشعر صادق يندى بالحب والتقدير، ويبادر بعقد صداقات مع المبدعين، وكانت إنسانيته تتفجر في استقبال العام الجديد، وقد ملك رهافة حسّ تجاه الزمن الهارب من عمره وربما استقبله بالحزن:

أعزيكم بعام قد تولى بعمر ما له أبداً رجوع

فقولوا واكتبوا عني حديثاً به الآهات تمليها الدموع

(1) من مقابلة أجريت معه عام 1990 م.

تقربنا النهاية كل يوم فما ندري أنحيا أم نضيع
فصبراً يا ليالي العمر صبراً فإن الذكريات لنا شفيع

ويناصر سلطان العويس الحركة النسوية للمرأة في وطنه، ويدعو إلى تحريرها، ويهيب برجال الوطن أن يعاملوا المرأة بما يليق بكرامتها الإنسانية أختاً وأماً:

لا تطلبنَّ من الرجال كرامة إن غاب عن لبن الرضيع إباء
كل يشد على يمين رفيقه إن التآزر في الحياة بناء

لم يجد الشاعر سلطان العويس في منجزاته وأعماله كلها فضلاً يذكر، ويعد مفخرته في شعره، وجرأته في قول الحق:

أنا الذي صارع الأيام مبتهجاً لم أخش من ذئبها إن خافت الغنم
الحرف أوله والحرف آخره بلابل تُسعد الدنيا فتبتسم

بهذه الروح المشرقة على الدنيا، ظل الشاعر العويس بلبلاً يغرد على شجرة الإنسانية، فتطرب لغنائه الغابة الملأى بالوحوش الكاسرة والنفوس الكارهة، عسى أن تبدل عدوانيتها المفرطة بابتسامة تعمر بالحب وتفيض على الكون بسعادة الحياة لا بأسلحة الدمار، وتلك هي فلسفة يمكن تقديمها لعصرنا المأزوم والمتعب.

الوطنية في شعر سلطان العويس

لم يعبر الشاعر سلطان العويس عن وطنيته وحسه القومي بالكلمات، فقد جمع القول بالفعل، فهو قبل أن يكون شاعراً كان رجل أعمال ناجحاً ينظر إلى مشروعه الوطني والقومي من زاوية عملية. ويؤمن أن نهضة الوطن والأمة وتقدمهما لا يكونان بالتحريض والخطب، بل بالعمل الواعي البناء، وإطلاق طاقات المجتمع وإعداد أفراده علمياً وتقنياً.

وأول ركائز هذه النهضة إطلاق الحرية المسؤولة للإنسان العربي: (بلا حرية لا نستطيع أن نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، إن غياب الحرية هو سبب تفاقم أزماتنا العربية واستفحالها)[1].

ويطيب له أن يشبه قسر الجماهير على الاستماع إلى موسيقى السياسة العربية، التي سئمتها بموسيقى نيرون الذي كان الناس يُقسرون على سماعها.

ومن أبرز مظاهر الحرية الاجتماعية لديه تحرير الاقتصاد، وتفعيل

(1) من مقابلة أجريت معه عام 1990م

النشاط التجاري الذي يجب أن يكون ميسوراً في العلاقات الاقتصادية بين الدول العربية والعالم؛ فالنفط وثرواته لا يكفيان لتحقيق هذه النهضة إذا لم تستثمر عائداته في مشروعات إنمائية وبناء قاعدة راسخة للاقتصاد.

ويرى العويس أن العروبة هي الهوية والشخصية الحضارية للأمة، ولا خوف عليها من المشككين بها؛ لأنها راسخة في ضمير الأجيال، وإنما الخلل في الفكر العربي نفسه الذي يعاني من التردي والهبوط، أو يقيم الحواجز بين العروبة والإسلام، وأن الإسلام إفراز عربي يمثل أرفع القيم العربية التي تنبتها الأمة. وفي رأيه أن الشاعر ثمرة التشابك الحضاري والنفسي والإنساني للأمة التي ينطق بلسانها؛ فرسالة الشعر هي التعبير عن ذلك الانتماء الوطني والقومي وتفعيله والدفاع عنه، وتعزيز سبل تقدمه في الدعوة إلى العلم والعمل.

التزم العويس الإنسان بسلوكه تطبيق هذه المبادئ وترجمها في تبرعات سخية لمؤسسات ثقافية وتربوية ووطنية ينهض بها وطنه والبلدان العربية الأخرى.

ونلاحظ هذه المبادئ مجسمة في شعره؛ فلم يترك مناسبة إلا حث فيها على النهضة والتقدم، وتوجيه قادة الوطن والأمة العربية إلى هجر التفرق والدعوة إلى الاتحاد والتضامن وتثمير خيرات البلاد. يقول:

لا يغلبنَّكم على أموالكم أحد — فاستأسدوا وازأروا تهتز أرجاءُ

تعاونوا تنجحوا في ظل قائدكم — فأنتم لبناء المجد أكفاء

وفي قصيدة عنوانها «بيت الكويت» يثني على المشروع الحيوي، والقائمين عليه، بإحداث بيت للطلبة الكويتيين في القاهرة، ويحث على نشر العلم والتعليم. يقول:

بيت تطاول في السماء بعلمه — وبنته أيدي الفهم من عقلائه

أثرى الشباب دراية وحصافة فبنوا دروب المجد في أفيائه
شدوا على التعليم شدة آسر بأسيره وتنافسوا برقائه
إن هزّ ركن في العروبة أطلقوا صوت النفير وناضلوا لبقائه

وفي نداء يوجهه إلى شباب بلاده، يدعو إلى ترقية الصناعة وتطويرها للحاق بركب الأمم المتقدمة، وهجر الوسائل القديمة التي تجاوزها الزمن. يقول:

إن الثقافة والعلوم كلاهما نبض الحياة وطيب كل جراحِ
أبناءها يا منتهى آمالنا إن الصناعة منتهى الإيضاح
ما عاد يومكم كيوم عابر كان الشراع وسيلة الملاح

ويعبر عن سعادته لامتلاك وطنه أسطولاً حديثاً من الطائرات يقوده إماراتيون متدربون، فيقول:

هنيئاً للأحبة يا فؤادي تجمعت العقول على السداد
إمارات المحبة قد تآخت تصافحت الأيادي بالأيادي
فتيهي يا «دبي» فإن مجداً تألق في سمائك يا بلادي
وأمسى في السماء لنا وجود لجمع الشّمل أو عند الطراد
تجمعت الصقور على يميني فأكرِمْ بالصقور مع العتاد

وتتردد في قصائده كلمة (مجد) ينعت بها كل تقدم يحققه الوطن، ومن هذه الإنجازات التقدم التربوي والعلمي، فيبارك الطلاب المتفوقين.

يا شبابٌ قادنا نحو العلا بخُطا العلم على الجهل تمرّد
قد زرعتم وجنينا ورده كلكم في حقله المخصب سيّد

ويعاتـب الموسـرين مـن أبنـاء الخليـج الذيـن صرفهـم بنـاء القصـور ووسـائل التـرف عـن تثمير أموالهـم فـي مشـروعات ومؤسسـات اقتصاديـة تعـود علـى أمتهـم بالنفـع. يقـول:

لا تبنِ قصراً يا مهيمن إننا نحتـاج للحـداد والنجـار
هلّا بنيت من المصانع جلها حتـى يكـون الجيش جيش فخار

وفـي قصيـدة عنوانهـا (تحيـة مصـر) يدعـو إلـى العـدل والحريـة وتحريـر السـجون مـن المناضليـن الأحـرار، ويذكـر أن الإسـلام وقادتـه الأولـون دافعـوا عـن الكرامـة الإنسـانية، فلـم يقبـل أن يهـان قبطـي مـن النصـارى مـن قبـل ابـن عمـرو بـن العـاص.

وكان لابن الأكرمين قِصاصُه جهاراً ولم تجد القرابة من «عمرو»
بعثنا لإتمام المكارم في الدنى سواء علينا عاطل وأولوا الأمر
متى كانت الأرحام تقذف أعبداً أتستعبدون الناس والحر كالحُرّ؟

ويلتفـت إلـى محنـة الحـرب الأهليـة فـي لبنـان، ويردهـا إلـى تآمـر أصحاب المصلحـة مـن الخـارج علـى أمـن البلـد العربـي الـوادع واسـتقراره. يقول:

إن العروبة في أرجاء عالمها عادت كرامتها في أرضها مِزَقا
وأطلق اللص قوساً دون أسهمه فينا، ولكنه من جبننا اخترقا

وأكثـر القصائـد صدقـاً وصراحـة قصيدتـه التـي يخاطـب بهـا أمتـه وقادتهـا ويدعوهـم إلـى تناسـي الخلافـات والأحقـاد ونبـذ الاسـتبداد، والالتفـات إلـى البنـاء والتعمير والأخـذ بالشـورى، ويحذرهـم مـن الاستسـلام للأجنبـي الـذي لا هـمَّ لـه سـوى تحقيـق أطماعـه ومصلحتـه. يقـول:

أقول لقومي بعد أن جدَّ جدّهم دعوا ما مضى واستقبلوا الأمر بالحزم
ولا تركنوا للوافدين فإنما يهمهم أمرٌ هو الفوز بالغنم
فلا تثقوا بالحكم من دون شعبكم فينقلب الباني بمنخفض الرَّدم
إذا ما استبدّ الفرد بالأمر عقّه بنوه، وأضحى الفرد كالجرح في الجسم

ويوجههم إلى سياسة عملية تتوجه إلى توفير الإنتاج الذي يقوم بأود الشعب، وإعداد الأجيال تربوياً وعملياً.

ونحن بعصر لا يرى العلم مِقْولاً بل العلم إنتاج من الخبز واللحم
وتصنيع موجود وإتقان صانع وتوفير ما يحتاج في الحرب والسلم
أيا قادةً، منا وفيكم رجاؤنا مزيداً من الشورى، مزيداً من الدعم
أقول وحسبي الله رباً فإنه قدير بأن يرعى، قدير بأن يحمي

ومن ألطف ما وصف به التحول الذي طرأ على المجتمع الخليجي بعد النفط واعتزازه بوطنه الذي كفى أهله في أيام جدبه وخصبه:

ماذا أقول لأرض كنت فلذتها كانت بلا بسمة واليوم تبتسمُ
كانت لنا الأم رغم الجوع ترضعنا واليوم فاض على أفواهنا الدسم

لكن هذا «الدسم» لم يزد في سعادة جيل النفط؛ لأن المادة غلفت قلوب الموسرين، وهجر الحب القلوب. يقول:

كنا مع الحب والدنيا نواكبها فأصبحت خطواتي كلها ظلم
حريتي هي أغلى ما أعيش به إن لم تكن فحياتي كلها سقم

ويؤلمه أن تقام القيود والحواجز بين أقطار العروبة المتعادية فينال المواطنون الضر ولا ذنب لهم ارتكبوه، فيكتب للوزير المسؤول بلسان امرأة منعت من دخول بلد عربي مجاور:

عجزتُ عن التفسير في كل مرة ... فلم يبق عندي ما أقول وأشرح
فصحتُ: أنا مظلومة كيف يغتدي ... جوازي لدى الشرطي يُمسي ويُصبح؟!
ففكوا قيودي يا عتاة فإنني ... خُلقت لحبّ أجتنيه وأصدح
فقل لوزير الخير أنت رجاؤنا ... يفك قيود الأم والله يسمح
أترضى فتاة أن تكون سجينة ... وليس لها حول يقول ويفصح؟!

بهذه الجرأة والصراحة بدا الشاعر سلطان العريس في قصائد الوطنية والقومية اللسان المعبر عن معاناة جماهير الشعب في الوطن العربي دون مداورة أو ممالأة. يقول:

أنا الذي صارع الأيام مبتهجاً ... لم أخش من ذئبها إن خافت الغنم
الحرف أوله والحرف آخره ... بلابل تسعد الدنيا فتبتسم

كانت عيناه كما يقول أحد المعجبين بجرأته: (مرآة صافية، فمن يقرأ شعره الملتزم يشعر أنه سافر الوضوح قريب إلى أذهان الناس، معبر عن معاناتهم وتطلعاتهم مع طرافة من التناول، والتماس للنقد الواخز والفكرة النافذة، وتقيد تام بديباجة الشعر العربي الفصيح وأساليبه، وحسن استغلال للمناسبات، التي قيل فيها، فأكثره قدَّمه الشاعر في مناسبات تعمد فيه حضور القادة أو القائمين على الأمر كمناسبات الاحتفال بتقديم جوائزه الأدبية، حيث الفرص أكثر ملاءمة ليوصِل كلمته إليهم وإلى أقرانه من الشعراء الذين يكرمهم ويرعاهم لترسيخ دعوته الوطنية والقومية في ضمير الحاكم والمحكوم، والمبدع والمتلقي).
ومع أن شعره الوطني والقومي لا يشكل إلا ربع مجموعته الشعرية، لكن مضمونه غني بالاتجاهات السليمة التي يمكن أن يُشاد عليها تقدم الوطن والأمة ورفعتهما.

ولـم تكـن تلـك المناسـبات التـي يسـتثمرها عابـرة فـي حيـاة الأمـة إنهـا مناسـبات سـعى نفسـه إلـى تشـييدها كتكريـم الأدبـاء وبنـاء المؤسسـات بمالـه الخـاص؛ فقـد ربـط الكلمـة بالفعـل، ولا مجـال لمـزاودة فـي وطنيتـه، وقـد صـدق مـن قـال:

(كان سلطان العويس رحمه الله فرداً في إهاب أمة).

واعتمـد فـي شـعره الوطنـي والقومـي الأسـلوب المباشـر لحرصـه علـى إبـلاغ رسـالته الشـعرية بوضـوح، فمـا نفْـعُ الشـعرِ إذا ظـل حبيـس قيـوده الفنيـة متعاليـاً علـى الجماهيـر لا يصـل إليهـم ولا يحثهـم علـى السـعي والبنـاء، وليـس الشـعر حليـة تزيـن الحيـاة، بـل هـو رسـالة هادفـة أدرك العويـس قوتهـا وأحسـن توجيههـا لنهضـة وطنـه وأمتـه.

الغزل في شعر
سلطان العويس

يشكل الغزل والتغزل ظاهرة فريدة في النتاج الشعري للشاعر سلطان العويس، تُذكّر بشعر عمر بن أبي ربيعة قديماً ونزار قباني حديثاً.. وقد نلتمس تفسير ذلك في شعر سلطان بصور من التماثل بين حياته عاشقاً وحياة «عمر» ذلك الأمير اللاهي الذي دفعه الفراغ والجدة إلى التفرغ للحب ومطاردة الغانيات على طريق الحج، لكن العويس لم يكن رجل لهو وفراغ بل كان إنساناً مجداً للعمل لديه قدسية وللهو والفراغ ساعات.

ويرد ذلك التماثل بين العويس ونزار إلى طموح كل منهما في إبداع شعري يقبل عليه الناس من خلال الغزل. وعادة الناس أنهم شغوفون بنزوعهم إلى الجنس الآخر بأحاديث الهوى والعشق. ويعود ذلك إلى إعجاب «سلطان» بشعر «نزار».. يقول: (أما نزار فيظل عندي في القمة من هؤلاء الشعراء، إنني أعده أهم شاعر عربي معاصر.. ومعياري الأساسي الإقبال الجماهيري على شعره، فقد نجح هذا الشاعر في إيصال صوته للجميع). وإذا كان العويس قد انغمس في التغزل بالمرأة حرصاً على التواصل بينه وبين القراء، فإنه يفصح أن (ليس في شعره

نتاج حال عشيقة وإنما يودّ الشاعر دائماً أن يقول الكلمة الجميلة، فيرى كثيرون أنني عاشق من خلال شعري، لكنني في الواقع عاشق للكلمة قبل أن أكون عاشقاً لمن قيلت فيه هذه الكلمة).

فالتغزل بالمرأة ومطاردتها بإلحاح كما يبدو في شعر العويس لم يكن إلا وسيلة لإثبات قدرته الشعرية، وتجاربُه مع العديدات اللواتي يغازلهن ويذكر أسماءهن تورية وتصريحاً ليست إلا تمويهاً وشعوراً إنسانياً وجمالياً من الشاعر لعلاقة حب يبرهن بها على قدرته الغنية الإبداعية، وبهذا ينفي «العويس» ما قيل عنه بأنه «زير نساء» كما نفى «عمر» من قبل حقيقة مغامراته الحياتية مع المرأة؛ فهو يتخذها وسيلة للتعبير عن ذاته وإبداعه وتماهيه مع العالم المحيط به، وتجسيد نزعة الحب القوية لديه التي تفيض على الكون وتخشع لصور الجمال بكل أشكاله وإن كانت صور المرأة لديه هي أروع صور الجمال.

في قصائد الشاعر سلطان العريس أكثر من دليل على أنه يتخذ من غزله وسيلة لإثبات شاعريته والتعبير عن ظمأ لديه للحب، فالحب بمعناه الواسع يفيض من روحه على كل ما حوله؛ على الطبيعة والإنسان، ويعبر عن كرم نفسه ورغبته في الاندماج بالوحدة الكونية التي يشكل جزءاً منها؛ فالحياة في نظره حب متواضع وعطاء وسماحة. يقول:

قولوا لفاطمة: الحياة جميلة والحب فيها دفقة لا ينضبُ
فإذا أبارك بالحروف فإنني بجراح قلبي يا حبيبة أكتب
يا عيدها، يا عيد كل جميلة نادى بحسنك في السماء الكوكب

ويرى في محبة المرأة أكبر باعث لإثارة شاعريته:

إذا مس قلب المرء بعض من الهوى سيرتد بعد العي وهو فصيحُ

فـإذا خلـت الحيـاة مـن الحـب، أصبحـت القصائـد غائمـة لا تقـرأ وخلـت مـن كل معنـى. يقـول:

ستتركني الحياة بغير حب ... بقية أسطر وبلا وضوح
فلولا الحب ما ائتلفت قلوب ... ولا دارت كؤوس حول عودِ

والحيـاة كلهـا لا تكتمـل إلا بلقـاء حبيـب ومحبوبـه فـإذا خلـت مـن المحبـة كان العـدم والفـراغ. يقـول:

ماذا أريد من الدنيا وفاتنتي ... قربي وراحتها مضمومة بيدي
إذا نظرت إليها جل أسئلتي ... أأنت في مقلتي أم أنت في كبدي؟
أنت الوحيدة في الدنيا فلا أحد ... بقادرٍ يجعل الدنيا بلا أحد

والحـب سـر مـن الصعـب تفسـيره ومعرفـة كنهـه، أودعـه اللـه فـي قلـوب البشـر، فـإذا غـادر النفـس ضلـت غايتهـا:

تركتني في الهوى أعمى بلا أذنٍ ... فلست أعلم ما آتي وما أذر

أنا السقام الذي يشقى الطبيب به ... فالحب أكبر مما يدرك البشر

ويتغـذى الحـب ويزكـو بالإدمـان، فـإذا غفـل عنـه الإنسـان مـات قلبـه وضـاع أريجـه:

إن الهـــوى أيامـــه ... كنقطـــة مـــن عـــطـــر
فـــإن نسينـــا شمّهـــا ... ضاعـــت كشـــأن الزهـــر

وقد يحيل الحب الحياة الجديبة إلى جنة نضرة. يقول:

والحب يخلق في الصحراء جنته ... فكيف والروض والأنغام والطُّرف

والحب قدر من الله يبتلي به عباده، فينعمون به وإن كانوا يشقون:

يا حلوتي يا آهتي إن الهوى   قدر جرى ونعمت فيما قدّرا

ومن علامات الحب التي تحدث عنها ابن حزم في «طوق الحمامة» لدى العويس ابتسامة الرضا والتسليم من المحبوبة والمثابرة عليه ومداومته:

الحب يسري في القلوب ببسمة   وبها نداء الصدق للخل الوفي

وربما كانت لغة الصمت في الحب أفصح من لغة الكلام:

لا تسألوا عن ذهولي عند رؤيتكم   قد أصبح الصمت شرحاً ناطقاً بفمي

وهكذا ينطلق الشاعر سلطان العويس في معاني غزله، الغزل العربي، لكنه يمنح المعاني ثوباً جديداً لا يخلو من طرافة، ولا يضيره أن يتناول ما تداوله السابقون من معاني الغزل أو يكررها في قصائده؛ فالمعاني يتداولها الشعراء والأهم في تشكيلها فنياً بطريقة جديدة. يقول:

كل يكرر نفسه في شعره   فكأنما ما قال بيتاً واحداً

وأشعار مجموعته حافلة بهذه المعاني التي تداولها الشعراء قبله، لكن العويس يعيد خلقها بتعبيرية ذاتية وأسلوب جديد في وصف جسد المرأة كقوله:

يا نور يا مهجة في القلب ساكنة   هذي الجدائل من ردفيك تعتذرُ

ونلاحظ أن غزل الشاعر العويس حسي، لا يؤمن بأسطورة الحب العذري، بل يرى في الحب طريقاً للتواصل بالمفهوم الجسدي، ولم يكن «قيس» سوى أسطورة خلقها المحال والعجز في الحب، ومع ذلك يجمع العويس معاني الغزل العذري في التودد للمحبوبة واستمالتها، بل ينظر إليها دمية جمال جسدي تفتنه، فلا يتورع عن وصف محاسنها

بأسلوب صريح. يقول:

وذاتُ قدٍّ كأن الله قال لها ... كوني الجمال فكانت فوق ما وصفوا
قالت: تحب؟ فقلت: الحب منتجعي ... له أغني وفي مثواه أعتكف
فأقبلت تتثنى نشوة وبها ... من نزعة الإثم شيء اسمه الظّرف
ألقت على الرمل جسماً كله فتن ... تغازل الشمس حتى خلتها تقف

وتقترن صورة المرأة في «مغامراته» بإطارها المكاني، فيصف مجالس اللهو والغناء والشطآن والمسابح التي ترتادها الغواني، وقد يكون الإطار عصرياً حين يتغزل بالمضيفات في الطائرات أو السفن، وقد أكثر العويس من تسجيل تلك اللقاءات العابرة التي لا تستغرق سوى زمن الرحلة ولا يترتب عليها لقاء أو تواصل، وإنما هي رغبته في أن يعبر عن موهبته الشعرية بأي نموذج نسوي يختاره، ولا يجد مانعاً من ذكر الأسماء الحقيقية لنماذجه النسوية مشتقاً معاني غزله مما تحمله من دلالات. ويهدي قصائده إلى نساء صديقات، فيقدمها إليهن بشعر لطيف حتى ليخيل لنا أن العويس يستغل أي مناسبة ليقول شعراً يفصح به عن نفسه، مما يشي بأن همه هو في الإبداع الشعري.

فالغزل عنده إثبات لموهبته الشعرية وليس وسيلة لعقد علاقة مع المرأة.

ترتد قصائد الغزل عند الشاعر العويس إلى نموذجين شعريين؛ النموذج الأول مقطوعات شعرية معتدلة الطول، تعكس تجارب حقيقية مع المرأة، وتحفل بمعاني الغزل المتداولة أو الطريقة التي يبرهن بها الشاعر على رغبته في إبداع إضافات إبداعية إلى الغزل الموروث، وقد ينجح في بعض مقطوعاته في تحديث هذه المعاني وتشكيلها من منظور شاعريته، لكن بعض نصوصه تسودها نزعة خطابية تقوم على الإيقاع الخارجي والاتجاه العاطفي وإيثار المبالغة والإفراط في وصف معاناته

إلـى مسـتوى العبوديـة ووصـف معاناتـه لتدلـل المحبوبـة:

إني أمامك أجثو والهوى قدري وقد ظلمت وإن الصبر قد عيلا
مُري جفونك كي تطغى فتقتلني فهل تُسرين إن أمسيت مقتولا؟

وقـد نجـد فـي قصائـد الغـزل لـدى الشـاعر الأسـلوب الغنائـي المهمـوس الـذي ينبثـق مـن الوجـدان، ويسـيطر عليـه النغـم الشـجي، وهـو فـي غزلـه قليـل الاحتفـاء بالصنعـة البيانيـة، فهـو شـاعر الحـس والفكـرة الواضحـة تنخفـض فـي غزلـه درجـة التكثيـف الشـعري والتشـتت، وإن هـذا اللـون مـن الشـعر مـازال يحقـق قـراءة عاليـة وسـيرورة لدينـا.

أمـا النمـوذج الثانـي مـن غزلـه، فيمكـن أن نطلـق عليـه تسـمية (القصيـدة القصيـرة) وهـي مقطوعـات شـعرية لا تتجـاوز بيتيـن أو ثلاثـة أبيـات تمليهـا مناسـبة مـا، وفيهـا كثيـر مـن الاختـزال والتكثيـف، ويهتـم الشـاعر فيهـا بتجسـيد الفكـرة الطريفـة بأقـل قـدر مـن التعبيريـة، وقـد تدهشـنا بجـدة الفكـرة وطرافتهـا واعتمادهـا علـى التخيـل:

في كل يوم لنا في الحب معركة نبكي على أحد يبكي لنا أحد
كأننا في مسار الحب امرأة هاج المخاض ولكن جاءها ولد

وهـذه الخطـرات امتـداد لمقطوعـات قصيـرة عرفهـا الشـعر العربـي القديـم وفتـن بهـا جامعـوه فعدوهـا مـن البيـان السـهل الممتنـع، ومـن جوامـح الكلـم فـي الشـعر، ونجـح فـي نظمهـا الشـاعر العويـس لأنهـا تلائـم طبيعـة العصـر الـذي يقـوم علـى السـرعة، فهـي تمتعنـا ولا ترهقنـا.

وحيـن ولـى الشـباب، وانطـوت علاقتـه بالمـرأة، قـد كان لرمـاد الحـب فـي نفسـه ذكريـات تفـوق تجربـة الحـب ذاتهـا:

دعوا الحب يأخذ ما تبقى فإنني وجدت رماد الحب أقوى من الحب

وظـل الشـاعر يعيـش علـى الذكريـات، وينهـل مـن ينبـوع الماضـي الـذي

استحال إلى أطياف وأشباح بعد أن طواه الزمن:

بحثت عن الحياة فلم أجدها سوى أني أعيش على الخيال
فأيام تحاول أن تراني وأخرى فيّ تمضي للضلال
وكم فسّرت في الدنيا ظنوني فأرجعني التوهم للمحال

إن قصائد الشاعر سلطان العويس الغزلية الخالدة التي خلدت حبه كانت أروع ما عزفته قيثارة قلبٍ لا يكف عن الغناء. وهو القائل:

قد أوجد الله فينا ألف أغنية فكيف لا نكتفي إلا بإحداها؟

لقد خلد الشاعر المرأة في شعره الغزلي، كما خلدته بما قال فيها.

المرأة في شعر
سلطان العويس

يعلل الشاعر سلطان العويس انصرافه الى الغزل في شعره بأن الشعر السياسي هو ثمرة أحوال سياسية غير مستقرة في الوطن العربي، أما الثابت والدائم فهو الحب والغزل؛ لأنه يرتبط بالمشاعر الإنسانية عبر العصور. غير أن اهتمام الشاعر العويس بالمرأة يُردُّ أيضاً إلى نظرته للحياة؛ فقد أتاحت له التجارة التعامل مع الناس، والاختلاط بالآخرين، وزوده ذلك الاختلاط بتجارب غنية متنوعه وأسفار كثيرة عرف من خلالها نساء كثيرات من مجتمعات مختلفة، غير أن شعره الغزلي ليس بالضرورة نتيجة حالات عشق مر بها، فهو يقول: (ليس كل شعر هو بالضرورة نتاج حال عشق، وإنما يود الشاعر أن يقول الكلمة الجميلة) فهو (عاشق الكلمة الجميلة قبل أن يكون عاشقاً لمن قيلت فيه).

وهو يربط بين الحب والحرية والإنسانية، ويرى أن كلاً منهما شرط ضروري لتحقيق الآخر.

لكن ذلك لا يعني أن سلطان العويس لم يمرَّ بتجارب حقيقية مع المرأة عبر عنها بصدق، ومع أنه يكني عن محبوباته بأسماء مستعارة مثل شعراء

الغـزل القدامـى، فمنهـن سـليمى وليلـى وفاطمـة وإيمـان وعبيـر وسـحر ورحـاب ويسـرى ورانيـة وميشـلين ومـي.

وبعضهن يتوجه إليهن بالخطاب دون تسمية، فليس ما يمنع أن يكون بعض نسائه من بنات الخيال الغني، وبعضهن نساء حقيقيات له معهن صلات حياتية واقعية. فقد خص بعضهن مثل سلمى بأكثر من قصيدة تسجل تاريخ علاقته بها، وبعض قصائده يشير إلى وقائع معينة ليست من خياله.

والشاعر العويس لم يقصر شعره في الحب على امرأة، ولا حصر ميدان حبه في بلد؛ فعالم المرأة عنده رحب يمتد إلى كل بلد زاره أو سافر إليه أو أقام فيه ما بين بيروت واللاذقية ودمشق وكراتشي ولندن ولاهور، والغرف في البرتغال وريودي جانيرو والقاهرة ودبي. بل كانت صورة المرأة ترافقه في أشعاره على متون الريح أو في القطارات والبواخر؛ فإذا ركب الطائرة إلى الدار البيضاء، حاول أن يقيم جسوراً من التواصل بينه وبين المضيفة المغربية، ولو كانت لهجتها المغربية عائقاً في طريق التفاهم بينهما:

تتكلميـن المغربيـة لهجـة — عربيـة لكنهـا لا تفهـم
فدعي عيونك ترجمان عروبتي — لغة العيون أرق منك وأرحم

والشـاعر سـلطان العويـس لا يتيـه أمـام المـرأة بجمالـه أو يعتـد بنفسـه كعمـر بـن أبـي ربيعـة، بـل هـو علـى نقيـض ذلـك يتذلـل لهـا، ويصـف تباريـح وجـده، ومـا يعانـي مـن دنـف المحبيـن، ويداورهـا لإيمانـه أن عسـر النسـاء إلـى مياسـرة، وصعبهـن يسـهل بعـد جمـوح يقـول:

ملكت زمام أمري فاستبيحي — عذابي في التنائي أو أريحي
زرعت الشوق ثم جعلت قيدي — أماني كالشموع وعصف ريح
أقيلي عثرتي في الحب زُلفى — ففي عينيك مقتول طموحي

أما ردود فعله لتمنع المحبوبة فمتفاوتة؛ فهو يغفر لها قسوتها:

وإن غراماً أودع القلب لوعة ظلوم ولكن المحب صفوح

غير أنه أحياناً يحسم أمره من جفاء المحبوبة، فيقرر أن يقاطعها بحزم، أما قلبه فلا يطاوعه:

سأرجع رقم هاتفها إليها وأقطع حبل وصل كان مدا
وأمحو كل سطر في فؤادي به كتب الهوى شوقاً وودا
سألقي بالرسائل في النفايا ولو كانت لنا من قبل ندا
برغم الذكريات ورغم قلبي سأبقى أستزيد البعد بعدا

وقد يظهر تشفيه وفرحته بمن انتقم له من المحب المتمنع:

غاري يا سيدتي غاري جاءت أخرى أخذت ثاري
أفسدنا الحب بغيرتنا فكلانا يلعب بالنار

وقد يرخص ماله، فيقدمه قرباناً لحبه مستعيضاً عن الدر بحديث المحبوبة:

عودي فماد عاد لي طفل أدلـله بعد الغياب، فعيدي كيف أقضيه؟
إليك مالي فما مالي سوى ورق لن يؤثر المال قلباً قد سكنتيه
لي من عيونك أموال أكدسها ومن حديثك در لست أحصيه

والشاعر العويس مولع بوصف ما تخلفه تجارب الحب من ألم ممض أو فرح غامر، وكأن آثار التجربة في نفسه أقوى من التجربة نفسها. يقول:

دعوا الحب يأخذ ما تبقى فإني وجدت رماد الحب أقوى من الحب

ويمكن أن تصنف قصائده الغزلية في ثلاثة محاور:

1. شعر قبل التجربة؛ وفيه يتذلل الشاعر ويداور المحبوبة أو يعاتبها أو يشكو صدها.

2. شعر التجربة؛ حيث نرى مواقف اللقاء، وما عل من أكواب السعادة ونهل من عذوبة الوصال.

3. شعر بعد التجربة؛ وفيه يصف أثر التجارب المخفقة أو الناجحة في نفسه وما سببته له من تعاسة وحزن أو غبطة وارتواء.

والشاعر العويس بارع في ملاحظة كل ما يقع في لقاءاته مع المحبوبة، ولا يغفل عن أدق تفاصيل المشهد.

كما أن الشاعر يؤمن بأن أيام الحب قصيرة كعمر الزهر، فإن مرت دون أن يستغلها الإنسان ذبلت مثلما يذبل الزهر دون أن يشم:

إن الهوى أيامه كنقطة من عطر
فإن نسينا شمها ضاعت كشأن الزهر

والمرأة عندة حاجة لا يستغنى عنها؛ لأنها تضفي على الحياة معناها، وتلون عمر الرجل بالجمال، وتظهر رجولته، وبوصالها يتباهى بين الناس.

دعي الأثر الجميل على ثيابي من الشفة المليئة بالعطور
إذا ما كان مثلك لي خليلاً فمن حقي التباهي بالظهور
وإن نامت عيونك عن عيوني تخدر كل حس في ضميري
فلا تجعل من الأيام سجناً فتخلعك الحياة من السرور
وكن وتراً يغرّد في الليالي إذا غاب المساء عن الطيور
فكل عائد في مستقر تراباً، والمياه إلى البحور

ومما لا شك فيه أن التجديد في معاني الغزل ليس بالأمر اليسير، وقد تداولها الشعراء منذ القدم حتى لم يبقوا لمتأخر فرصة؛ ولكن الشاعر العويس حاول أن يسبغ على غزله طابع العصر، فهو يضيف إلى ما خلّفه الشعراء السالفون ابتكارات في تحليل الحب والتقرب من المحبوب ولواعج الحب في النفس لم يسبق إليها، ويتسم تناوله لموضوع الحب بالطرافة، وهي سمة تفرد بها في أكثر قصائده. وقد خرج من إطار الحب الضيق إلى آفاق فسيحة من المعاني والصور اللطيفة.

غجرية هتف الجمال باسمها فكأنما هي للجمال شعار
قالت لكل مؤلف وملحن إني أنا الأشعار والأوتار

فهو بحق عندليب الحب وقيثارته الهامسة، جعله منتجعاً له، ومعبداً يخشع في رحابه للجمال.

قالت: تحب، فقلت: الحب منتجعي له أغني وفي مثواه أعتكف

والشاعر سلطان العويس يشحن قصائده بطاقة غنائية، فيوفر لها الإيقاع الناعم الذي توفره الكلمات العذبة الرقيقة، والموسيقى التي تلائم موضوع الحب.

ويعود جانب كبير من نجاحه في شعره الغزلي إلى متانة ديباجته في شعره الغزلي، والتزامه أساليب الشعر الغزلي التقليدي وتراكيبه ومعانيه، وهو شعر يعبر عن وجدان الإنسان، ويحمل في ثناياه شحنة عاطفية قوية، استغلها الشاعر، فاستعار تراكيب الأقدمين كالهوى والوجد والبين، والكؤوس والحبيب، والوقوف على ديار المحبوبة، وتشبيه قدّ المحبوبة بغصن البان، ونفَسها بالأريج والمسك... كما ضمن شعره بعض المأثور من التراث، كقوله:

لقد كنتِ الحياةَ فدمّريها فليس السلخ يؤلم من تردّى

فهو يشير إلى قول أسماء لابنها عبد الله بن الزبي: إن الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ.

وأما الجانب العصري من شعره، فيتجلى في تصويرة لمسامراته مع المحبوبة على الهاتف، ووصفه لأماكن لقاء المحبين الحديثة من مقاهٍ وملاهٍ وفنادق وشواطئ يأخذ الحب فيها طابعاً عصرياً بعد أن كانت مواطن اللقاء في شعرنا القديم الأسواق التجارية وطرق الحج. أما اليوم فقد أسفر الحب عن وجهه؛ فلم يعد المحبوب يتسلل إلى خيمة من يحب وأهلها يحرسونها، والمحب يغامر بحياته؛ إنه عند الشاعر سلطان العويس مواعيد ولقاءات سافرة، تمارس فيها المرأة حريتها كالرجل، وإن كانت هذه اللقاءات لا تخلو من عذال ورقباء ومنافسين ينغصون متعه.

ومع كل تلك الوقائع الغرامية التي يصفها الشاعر، ويخيل لنا أنها حقائق وقعت، فإن جانباً كبيراً من شعر العويس في المرأة يكاد يكون غناء بريئاً بالجمال، يريد منه أن يبرهن عن عشقه للكلمة مرسخاً تجربته الفنية. فالجمال يستثير شاعريته أينما رآه حتى ليصدق فيه قوله:

ما إن أرى حور العيون بمقلة إلا تغنت للعيون طيوري
أنا للجمال ضحية لا تنتهي وفراشة للنار أو للنور

ولئن احترق بتجربة الحب، فقد توهج من ألق مشاعره نور الإبداع الخالد، الذي يمد أرواحنا بالسعادة على مر الزمن.

سلطان العويس
في ذاكرة معاصريه

حين طوى الراحل المبدع وراعي الأدب الكبير سلطان العويس جناحيه المشرعين لمعانقة الحياة، وغامت ابتسامته العذبة التي لم تفارقه، هز رحيله قلوب محبيه وعارفيه، لكن فقده تجاوز من عرفه إلى أولئك الذين لم يلتقوه إلا من أعماله الأدبية ومشاريعه الإنسانية، وأنا من الذين يهزهم رحيل المبدعين مع أن آثارهم تضمن لهم أن يحتلوا دائماً زاوية من قلوبنا كلما تصفحناها.

لقد هزني رحيل سلطان العويس مع أنني لم أعرفه، ولم يتح لي شرف لقائه قبل رحيله وأن أحظى بمجالسته. وظلت صلتي به روحية وفكرية وفنية مبعثها الإعجاب بشخصيته التي تجمعت لدي صورة عنها خلال أخبار ما كتب عنه، وتعززت هذه الصداقة بعدما قرأت شعره، ووقفت على نشاطه الاجتماعي والقومي.

تُرى هل كان العويس الراحل يدرك أن له في كل بيت محبين مجهولين تربطه بهم صداقة الإنسانية والعشير؟

أنا واثق بأنه كان يعرف هذه الحقيقة؛ لأنه في حياته وأدبه راهن عن الإنسان وفتح قلبه للناس، فكانت تجارته رابحة، لا تقارن بها عائدات اللؤلؤ المكنون الذي تاجر به؛ فقد تحول إلى صياد للبشر يكنزهم في قلبه ليكونوا ثروته الآجلة يلهجون بالثناء عليه، ويقدرون له صدقه في محبته للإنسان، ونبله في التحرر من عقدة الأنا التي تحب أن ترتفع فوق البشر بنزعة التعالي والتملك، لكنها تموت في شرنقتها كدودة القز.

قيل: إن ثمانين شاعراً وقفوا على قبر المعري يرثونه عند وفاته مع ما عرف عنه من كره للحياة وتشاؤم وعزلة وقلق نفسي، فما الظن بوقع الخسارة لفقد رجل كالعويس فتح للناس قلبه، وللمبدعين خزائنه، وآمن بالحياة وشارك الناس في رغيف خبزه ولقمة عيشه، وقدم لأمته أروع مثل في التضحية والبذل، حتى غدا بيته بحدود وطنه ووطن الإنسان في كل مكان، وبدت العروبة بل الإنسانية أسرته؛ فلا غرابة أن يكبر معاصروه الرجل الذي أمسى ظاهرة في حياتهم، وأن يوفوه حقه من التقدير بالكلمة الطيبة وهي كل ما يملكون، وإن كانوا يتطلعون إلى تكريم أعظم، يعزز مناقبه في ضمير الأجيال.

إن شهادات معاصري العويس من الأدباء والشعراء ورجال الفكر تبرز مكانته في حياة المجتمع العربي الإسلامي، وجهوده الإنسانية العظيمة في دفع الحركة الأدبية وتشجيعها، وقد تتناول بعض الشهادات خصائص شعره وسمات شخصيته الإنسانية التي أملتها مشاعر الأسى بعد رحيله، ولا تغني عن دراسات عميقة هادئة تلقي الضوء على حياته ونتاجه، التي صدرت من أبرز أعلام الأدب والفكر في عصره لتظل اعترافاً بعظمة الرجل ومدى تأثيره في الحياة الاجتماعية والأدبية، يَسِمُها إحساس بالقصور في الوفاء له، كما يتضح في كلمة الأديب «سيف المري»؛ إذ يقول: (إذا أردنا أن نعدد مناقب الرجل الكبير، فإن ما قدمه

سلطان العويس من أعمال خيرة يحتاج إلى جهد وكتابة أكبر بكثير من صفحات، ولكنا آثرنا أن نسهم ولو بالقليل في تقدير رجل قدره وطنه وأمته، وسيستمر في ذاكرة الأجيال بما قدمه من مآثر لبلده، وخدمة الإنسان العربي أينما كان)[1].

ويستطرد الكاتب إلى وصف بعض مناقب العويس فيقول: (كان – رحمه الله – رجلاً شديد التواضع، محباً للبساطة، وأبعد ما يكون من المظاهر التي لا قيمة لها، وكان أباً للجميع خاصة الأدباء والشعراء الذين كانوا يجدون فيه الأخ والأب والصديق). ثم يشير إلى عظمة بذله بصمت فيضيف: (كان يقدم الكثير في صمت بلا منّة أو انتظار كلمة شكر من أحد، وسوف تستمر الذاكرة الجماعية تحفظ له ما يليق برجل بذل الكثير في سبيل أن يتبوأ الأدب العربي المكانة التي تليق به)[2].

وفي شهادة الشاعر سليمان العيسى، يعرض فيها ولع العويس بالشعر والاستمتاع بسماعه وتقديره للفن، وعشقه مدينة دمشق التي استقر فيها واتخذها وطناً له، فكان بيته في حي الروضة ملتقى الأدباء ورجال الفكر.

ويؤكد العيسى أن العويس شاعر يولي شعره اهتماماً أكثر مما يولي أي مشروع آخر في حياته، وأنه يفهم الشعر على أنه تعبير صادق عن الذات: (ديواني هو أنا، وإذا ما بقي شيء يشير إليّ يوماً فسيكون تلك المقطوعات الحميمة التي كتبتها ذات يوم وسجلت أو حاولت أن أسجل فيها أجمل لحظات العمر في كلماتها).

ويختم العيسى كلمته بأربع مناقب يلخص بها حياة الرجل وهي:

1. عفوية بوحه الشعري.

---

(1) من مقدمة كتاب (الصدى) الصادر في عام 2000 م بعنوان سلطان العويس.. شمس الثقافة التي لا تغيب.

(2) المصدر السابق

2. بساطة حياته.

3. طيبة قلبه.

4. أصالة عروبته.

وفي شهادة المفكر محمود أمين العالم التفاتة إلى أهمية الجائزة التي رصدها العويس للمبدعين؛ فهي تتمتع بتقدير جماهير الأدباء لأنها لا تهدف سوى تشجيع المواهب الأدبية الحقيقية، فقيمتها -كما يقول- (في حسن اختيار الفائزين بها) وحياء راعيها الذي ترك للجان مختصة تسمية الجديرين بنيلها بعيداً عن أي مجاملة أو توجيه.

ويبدي الناقد الدكتور إحسان عباس في شهادته أثر صدمة رحيل العويس في نفسه، فيقول مخاطباً الراحل: (كان خبر رحيلك عن هذه الدنيا صاعقاً لأنه تأدى إليّ مفاجئاً، هز وجداني وأثار لدي الهواجس والذكريات، عرفتك في أول دورة التزمت فيها لجنة التحكيم، ورأيت فيك إنساناً متواضعاً في نبل، لطيفاً في حزم، وقوراً، تضوي قسماتك ابتسامة عذبة، ووجدتك -ربما بسبب أنه لقاؤنا الأول- مؤثراً للصمت، منكراً للذات، ثم عرفت من كل منْ طالت بهم عشرتك مدى ما تتمتع به من سماحة كف، وعفة لسان وشغف بأعمال البرّ والخير، ووجدت في رصدك جائزة للإبداع الأدبي بكل مجالاته أنك إنسان يقدر مكانة الإبداع في حياة الأمة، وأنك تحب العاملين في صمت والمثقفين لما يعملون، والناهضين بأعباء الفن والثقافة).

ثم يشير إلى أن رحيل العويس جاء في بداية قرن جديد يحمل تحولات كبيرة تهدد الأمة، وكأنه احتاط لما سيفاجئها من النكبات بتأسيس مؤسسة العويس التي تصون أدب الأمة وهويتها في مواجهة الاستلاب الثقافي؛ فكانت خير عمل يقدر الإنجازات المتميزة.

وفي شهادة الشاعر العراقي عبدالرزاق عبدالواحد يؤكد أن العويس اتخذ من قول الشاعر طرفة بن العبد شعاراً له في الحياة:

إذا كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وقد بادرها العويس بما يحفظ له وللثقافة أخلد الأثر، ويرى الروائي المصري إدوار الخراط أن جائزة العويس اكتسبت مصداقية كبيرة واحتراماً لأنها اتسمت بالموضوعية في الاختيار والأمانة بعيداً عن الضغوط السياسية أو الشخصية أو تبادل المصالح أو الخضوع لإيديولوجية أو سلطة معينة.

ويعرض الأديب بلال بدور صفحات من حياة العويس التي قامت على البساطة والتواضع والصدق، فيقول: (كان العويس صاحب الملايين العديدة يجلس بين زوار مجلسه بدبي واحداً منهم، ليس ثمة أرائك خاصة ولا أمن يحيط به ولا خدم ولا حشم ولا دعوات تحدد من يأتي أو يمنع من الحضور.

يوزع حديثه بين الحضور يسأل ويطمئن ويحاور ويناقش، يحترم رأي الآخرين ولا يفرض رأيه. كان مليئاً بحب الناس؛ يعيشون في قلبه وذاكرته ويملكون اهتمامه، لم يشغله المال ووسائل تنميته بل سخر ماله لخدمة الناس بمفهوم حضاري، بادر بدعم المؤسسات الثقافية التي تعنى بالفكر العربي.. وكان واسع الاطلاع وإن كان الشعر والأدب والتاريخ في أولويات قراءاته.. رصد الجوائز التقديرية للأدباء، وأسهم في البناء الاجتماعي خلال دعم المؤسسات والبرامج الاجتماعية ودور الرعاية والمرافق العامة، ووجه أمواله لدعم التعليم وإقامة المعاهد والكليات العلمية والتقنية في بقاع عديدة؛ لإيمانه بأن العالم العربي يعوزه الفكر العلمي وبحاجة إلى دخول عالم التقنية، وهي سلاح الحاضر والمستقبل).

ويشير إلى شاعرية العويس المرهفة وعمقه الفكري المستمد من ثقافته وتجاربه في الحياة.

ويرى الناقد حمزة أبو النصر أن صدمة رحيله كانت أقوى على المشاعر من أن تطلق للقول العنان، فبدت المراثي أقرب إلى المشاعر العاطفية، وتجلى ذلك في قصيدة الشيخ فاهم بن سلطان القاسمي الذي ربط بين رحيل شهر رمضان ورحيل العويس في ذلك الشهر المبارك:

رمزان للخير العظيم تولّيا شهر العطاء وأشهرُ الكرماء
ولئن مضى شهر الصيام بخيره سيظل خيرك دافقاً كالماء
يا من غمرت القلب حباً صافياً أبشر بحب الله في العلياء
قدرت للإنسان نبل خصاله ورفعت أهل الفكر والعلماء

ففي محبة العويس للناس تكمن عظمة نفسه.

وفي رثاء الشاعر محمد بن خليفة بن حاضر، تأمل وتعمق في تحليل شخصية الراحل وبيان لأثر فقده:

هوى، فهوى غداة هوى الجميل وضاق بطالب العون السبيل

وفي النص أثر من الاحتفاء بالبيان، وتوسيع لدائرة الحدث:

تئن السافيات لفرط حزن على رجل مشاكله قليل
قضى سلطان فالدنيا وجوم ووجه الصبح مصفّر عليل

وكان للأديبات إسهام في تأبين الأديب الشاعر الراحل، فكتبت الشاعرة صالحة غابش: (يمثل هذا الرجل في واقع مجتمعنا المحلي والعربي واحداً من فرسان العطاء والبذل، فتعددت صور إحسانه أكثر من مجتمع، ليس من السهل إحصاء مواقفه الإنسانية لا لكثرتها بل لصعوبة الفعل

نفسه حتى لا يقع في دائرة المديح والثناء اللذين لن يقدما أو يؤخرا.. وتزداد الصعوبة حين تستنفر الأقلام كلها لأن تقول كلمة في حق رجل له بصمته الواضحة في المشروع الإنساني الحديث).

وتذهب الأديبة مريم سالم إلى أن العويس (أول من جدد الشعر الكلاسيكي؛ فقد كانت بدايته مع ثالوث الشعر في الإمارات خلفان بن مصبح وصقر القاسمي إلى جانب كونه شخصية ثقافية عامة مرموقة وضعت بصماتها على المشهد الثقافي محلياً وعربياً، إضافة إلى أياديه البيض في دعم وتشجيع المبدع العربي).

وتلتفت القاصة باسمة يونس إلى نزعة العويس الواقعية؛ فقد كان (يراقب الأشياء والأحداث حوله بنظرة إنسان محب يبحث بين الأشخاص عن قصيده). وأن رحيله مع غروب قرن منصرم لن يحول بينه وبين الخلود.

وفي شهادة الكاتبة الناقدة عائشة محمد الشيخ، المتابعة لنتاج العويس الأدبي، حيث يتسم شعره بالشفافية والتفاؤل وأنه شاعر مقل آثر (ألا يساوم على الكلمة ولا يتكلفها ولا يرضى لها أن تتوكأ على بقايا وقته المتعب والمتخم بالتفاصيل، إنه يحترم الكلمة ويقدسها أكثر مما قد يستوعب أولئك المتعلقون بأطيافها علها ترفعهم إلى المجد، ولم يكن محتاجاً لذلك).

وتصف شخصيته فتقول: (رجل يضج ببراءة الصحراء.. وبعنوان الحياة المتمدنة التي شهدها في أكثر بقعة من العالم.. رجل حمل في قلبه ألف قصة جميلة عن الحب والخير والعلم والأدب، أراد أن يكملها بخاتمة سعيدة فأفلح كثيراً).

وتلتفت الشاعر سعدية مفرح إلى موقع المرأة في شعر العويس، فترى أن شعره

(يدرج على أرضية المرأة حيث هي حلم مستحيل عصي التحقيق رغم أنه يؤطرها عبر مفردات القصيدة كائناً بشرياً له تكويناته وملامحه وتقاطيعه الجسدية الجميلة والتي يلامسها الشاعر بجرأة بالغة ومستمرة).

وفي كل بقعة من الوطن العربي كان لرحيله الفاجع صدى لدى المبدعين، منهم من حظي بجائزته التقديرية. فمن سورية يكتب الأديب القاص وليد إخلاصي، فيقول: (خرج من خاصرة الوطن العربي التي طالما غسلت الرمال فيها مياه بحرية مالحة، كما تظهر اللؤلؤة من جوف الصدف تشرق بضياء أخّاذ، فاستهوته اللآلئ الدفينة لجمعها، فإذا هو مع الأيام يعتقد بأن اللآلئ الحقة هي تلك الموجودة في أرواح الناس وعقولهم، فأخذته من أعماق كنوز الإنسان لتصبح سواء بسواء ككنوز البحر).

ويصرح الكاتب عبدالإله عبدالقادر عن خوفه من أن تجيء شهادته قاصرة عن الوفاء بعالم العويس الشعري بما فيها من العجالة، فيقول: (هو آخر حلقة من الشعراء الرواد وحركة الشعر المعاصر في الإمارات، وهو أيضاً أحد شعراء الغزل بعد نزار قباني وأحد شعراء الوطنية والقومية البارزين).

ويعرض النظر عن رثاء العويس لأنه (مازال حياً بآثاره وبساطته وعفويته التي تفتح له الباب إلى قلوب الأجيال، وتلك البساطة التي جعلت صحفياً يريد أن يقيم حديثاً منه لا يصدق أن رجلاً في جاهه وثرائه وأدبه لا يقابل الناس وفق جدول مواعيد ومراسم).

وربط الكاتب الدكتور وليد قصاب بين عالم المال والتجارة والأدب في حياة العويس وما بينهما من تناقض استطاع العويس أن يؤلف بينها في سيمفونية حياته العجيبة، وتطلعه إلى أن يجعل من أيامه صوراً للجمال والحب في إطار حضاري وعالم طغت عليه المادة.

ويتناول الكاتب عبدالله اللحيدان جدلية المال والثقافة حين يسخر أحدهما لخدمة الآخر، ويرى أن العويس استطاع أن يتعاطى مع هذه الجدلية بطريقة تنويرية إنسانية، على نقيض من وظّف المال للشهرة العابرة؛ فهو حالة فريدة في مجتمعات أصبح المال والشهرة هدف الغالبية منها.

وتتعدى شهادة الأديب سالم الزمر مشاعر الرثاء إلى دراسة قصائده، ويستعرض وقفاته الشعرية، ومنها إيمانه بأن المبدعين ورثة الأنبياء:

كل من يكتب حرفاً ثائراً هو فينا قبس شبه نبي

وهو متمسك بعروبته وإسلامه يدافع عنهما بقلمه وماله، ويتناول الدارس نزعة العويس الوطنية التي جمع خلالها الوطن والمرأة في صورة واحدة:

أمسى لقاؤك لي يا منيتي وطناً فكيف ينعم من يبقى بلا وطن

ويربط بين الوطنية والدعوة إلى الاتحاد الذي يرى في تحقيقه عملاً عظيماً كإبداع القصيدة الشعرية:

الاتحاد قصيدة وحروفها أبناؤها وقوامها الأمراء

ويقدِّر المرأة ويؤمن بأثرها في بناء الوطن وتنشئة الجيل على الكرامة:

لا تطلبنّ من الرجال كرامة إن غاب عن لبن الرضيع إباء

وهو يقدس الحرية ويسفه حياة لا تقوم على دعائم الحرية:

حريتي هي أغلى ما أعيش به إن لم تكن فحياتي كلها عبث

وهو شاعر واقعي ينهل من بيئته الخليجية رغم تأثره بشعراء الشام:

آباؤكم خاضوا البحار عزيمة والموج بين محارب وحراب
ذهبوا ليأمن طفلهم من جوعه والأم ترعى الطفل للغياب

ويستعرض الأديب يحيى البطاط ذكرياته مع العويس ومع شخصيته الشعرية، حيث تنطوي على بعض تقاليد الصعلكة الشعرية، وهو شاعر حسي يتفاعل بشعور وصدق مع ما حوله من دون تصنع ولا تكلف.

ويفسر العويس عفوية شعره في حوار أجراه معه الأديب مؤيد الشيباني بأنها عفوية مكتسبة من صدقه مع نفسه ومن الاختلاط والتجربة. يقول العويس: (أنا أديب أعيش مع الناس، وأفهم ماذا يقرؤون وماذا يحبون سماعه).

ويبدو أن العويس فهم الحداثة من خلال إدراكه العميق لوظيفة الكلام، يقول: (الشعر نحت، أنت عندما تعلق لوحة على الجدار فإنك تطالب الناس أن يشاهدوا موضوعها ويتمتعوا بجمالها، وهكذا القصيدة بعيداً عن الفلسفة والغموض).

كما يبدو أن «جماعة الحيرة» -والعويس أحد أفرادها- كان لهم إسهام في نقله الشعر من الاتباعية إلى الاتباعية الجديدة، حيث حفاظهم على بنية القصيدة التقليدية وأساليبها التعبيرية واحتفاؤهم بتهذيب لغته وتطويع موضوعاته لتلائم روح العصر، وشحنه بدفقة من المشاعر الرومانسية فرضتها طبيعته.

لقد كان التقليد الأدبي أن يكَّرم الشاعر والمبدع بعد موته، لكن العويس آثر أن نكرمه في حياته ليشعر بصدى إبداعه في ضمير أمته، ويموت راضياً.

تلك هي شهادات كوكبة من أعلام العصر أملاها إعجاب معاصري

سلطان العويس به، وتقديرهم لأعماله الخالدة ومناقبه الإنسانية. ولا يسعنا أن نجمع شهادات البسطاء وعامة الناس ممن نالهم فضله، وأولئك الذين صادقوه ولم يعرفوه.

وستبقى صورته في قلوبنا بعد رحيله الأبدي مثلما كانت قبل رحيله؛ إنساناً نبيلاً علمنا الثقة بالحياة والتفاؤل والقدرة على مواجهة الصعاب بالابتسامة.

المؤلف

عبداللطيف أرناؤوط

- من مواليد دمشق عام 1931.
- أنهى دراساته في الجامعة السورية.
- تسلم عدة مراكز في وزارة التربية.
- عمل مديراً لتحرير مجلة المعلم بوزارة التربية، وأميناً لتحرير مجلتي (الموقف الأدبي - والتراث العربي) في اتحاد الكتاب.
- له أكثر من 90 مؤلفاً؛ تأليفاً وترجمة ونقداً.